الرحلة من موت الخطية الى قيامة الحياة

الأنبا إيساك

الأسقف العام لدير الأنبا مكاريوس
السكندري

https://coptic-treasures.com

الرحلة

من موت الخطية إلى قيامة الحياة

لانتوني بلوم

ترجمة
الأنبا إيساك

مراجعة
الأنبا متاؤس

إسـم الكتـــاب : الرحلة من موت الخطية إلى قيامة الحياة .

ترجمـــــــة : الأنبا إيساك .

فصـــل ألـوان : سكانينج هاوس .

المطبعـــــة : delta PRESS – ٢٤ ش الدلتا سبورتنج .

ت : ٠٣/٥٩٠١٩٢٣

الطبـعـــــة : الثانية ٢٠٠٩

رقـــم الإيـداع : ١٥١٥٦ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولـى : ٨-٧٣٩٦-١٧-٩٧٧

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧

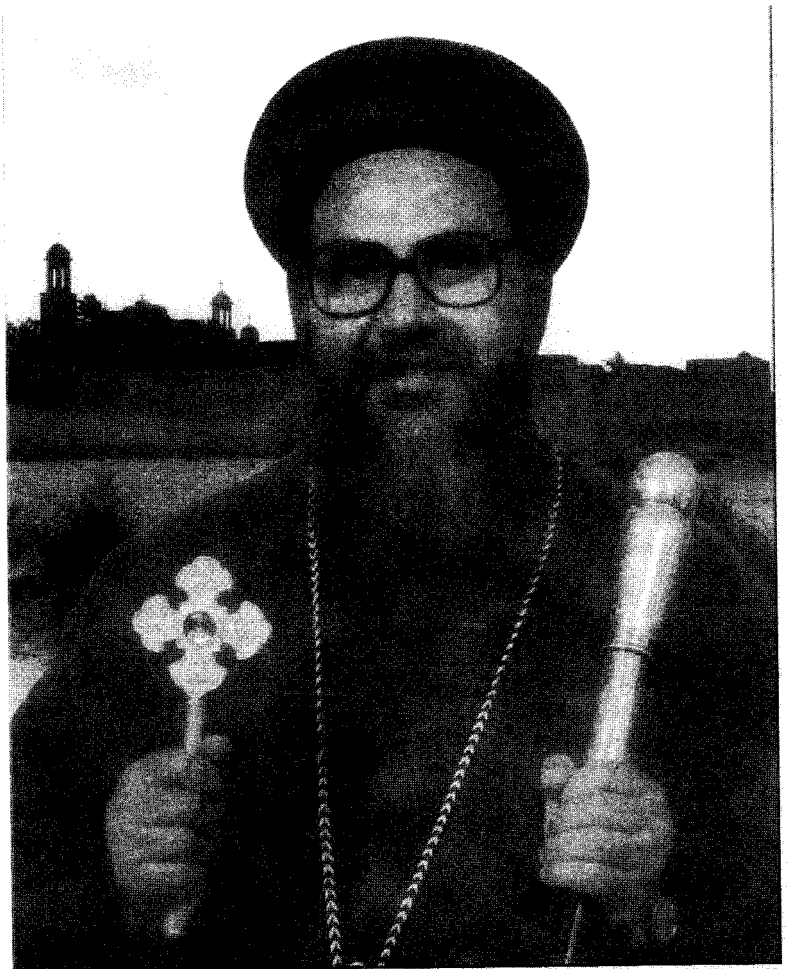

نيافة الأنبا متاؤس

أسقف و رئيس دير السريان

بسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٧٦ تحت عنوان "الصوم الكبير رحلة إلى الله" ولقد لاقى هذا الكتاب استحسناً في الكنيسة، حتى أنه كان يُدّرس في اجتماعات الشباب وإعداد خدام... كما مدحه كهنة وأساقفة كثيرون بل أن بعض فصول الخدمة طبعت منه "بالفوتوكوبي" كي يكون متاحًا للخدام... لأجل كل هذا فكرت بتشجيع من مكتبة كنيسة مارجرجس باسبورتنج- الإسكندرية أن نُصدر طبعة ثانية من نفس الكتاب تحت عنوان "الرحلة من موت الخطية إلى قيامة الحياة" لأنه في الواقع كتاب للسنة كلها وليس للصوم الكبير فقط.

الرب قادر أن يجعل هذا الكتاب سبب بركه للجيل الجديد.

مجدًا للمسيح، وسلامًا وبنياناً لكنيسة الله.

الأثنين: ٩ مارس سنة ٢٠٠٩.

٣٠ أمشير سنة ١٧٢٥ ش

نياحة البابا كيرلس السادس

الأنبا إيساك

مقدمة الطبعة الأولى

فترة الصوم الكبير، كما يقول آباؤنا القديسون هي فترة الخزين الروحي للعام كله...

أنه زمان التوبة، مع الصوم الانقطاعي، والقداسات اليومية في جميع الكنائس تقريبًا، معظمها تنتهي بعد الظهر، أنه زمان الاعتكاف والخلوة ومحاسبة النفس، والاعتراف الشامل...

فكيف نجعل من فترة الصوم الكبير فترة فرح وعزاء روحي؟
كيف نجعل منه رحلة، تبدأ من عمق خطايانا، وتنتهي إلى نور الله؟
كيف نعد أنفسنا به للقاء مسيح الصليب والقيامة؟

كل هذه الأسئلة نجد لها ردودًا عملية وعميقة من شخصية روحانية عميقة، وهو "أنطوني بلوم" رئيس الأساقفة الروس في لندن. الذي يعتبر بكتاباته الروحية، الوريث الشرعي للروحانية الروسية، مع ثقافة شرقية وغربية شاملة...

كان طبيبًا، ثم أعتنق الرهبنة، ورسم أسقفًا سنة ١٩٥٨، ثم رئيس أساقفة سنة ١٩٦٢. و له نشاط ملحوظ في حركة الوحدة الكنسية.

وهو في كتابه هذا، يأخذنا خلال سبع محاضرات في رحلة إلى الله – أنتقيت منها أربعة – يأخذ فيها الإنسان إلى داخل ذاته، ومن هناك

يجد الإنسان نفسه بعد مشوار طويل متلاقيًا مع المسيح المصلوب، والقائم من الأموات.

يقول: "أن ملكوت الله يغصب، أنه لا يمنح للكسالى، أن ما تريده إزاء الله الذي أعلن لنا بالمسيح، هو أن نصير تلاميذ حقيقيين، نقرب ذواتنا تقدمة حية لله".

أتوسل إلى ربنا يسوع المسيح، أن يجعل هذا الكتاب سبب بركة للكثيرين. ليستفيدوا من فترة الصوم الأربعيني. ويخرجوا منه إلى جدة الحياة، عائدين مرة أخرى إلى حضن الآب السماوي.

أشكر كل من تعبوا معي في مجهود الترجمة والمراجعة والنشر. وليكن هذا الكتاب سلامًا وبنيانًا، وعمقًا وروحانية، لكنيسة الله آمين.

الثلاثاء: ١٠ فبراير سنة ١٩٧٦م.

٢ أمشير سنة ١٦٩٢ ش

عيد القديس الأنبا بولا أول السواح

الأنبا إيساك

أولاً

الاستعداد للرحلة نحو الله

منطقوا أحقاءكم

الصوم الكبير والفرح...

أن فترة الصوم الكبير، هي فترة فرح – بعكس ما يفتكر الكثيرون – أنها فترة الجهاد الروحي، والخلوة. وقت عودة النفس المتغربة إلى ذاتها والرجوع بها للحياة مرة أخرى. أنها الفترة التي ننفض عنا فيها كل ما فينا من فساد وموت، ونخرج لمواجهة الحياة مرة أخرى بكل عمق واتساع وحزم.

أن كنا لا نعتبر فترات الصوم والجهاد الروحي بأنها فترات فرح، سنيأس من طريق القداسة، ونُتعس حياتنا، ونشقى من هم حولنا الذين سيدفعون ثمن جهلنا هذا.

ربما يظهر أن طريق الجهاد العنيف، والسعي في طريق النقاوة يتعارض مع الفرح. والواقع أنهما يتلازمان: الجهاد والفرح هما حياة الكنيسة، وحياة الإنجيل، لأن ملكوت الله يغصب. أن الملكوت لا يمنح للكسالى الذين ينتظرونه برخاوة واكتأب. أن الملكوت هو نصيب مغتصبيه بكل فرح. سيأتي في الهزيع الأخير من الليل، كلص الغفوة، كالعريس الآتي أثناء نوم العذارى الجاهلات.

أن مجيء الملكوت في النهاية، هو مجيء للدينونة، ورغم علمنا بهذا إلا أننا نكرز ونبشركم بأنه يوم فرح في الكنيسة. نبشر أن يوم الرب ليس مخيفًا ولكنه يوم تحقيق الرجاء. ونستطيع ككنيسة أن نقول مع الروح القدس: "آمين تعال أيها الرب يسوع، تعال سريعًا" (رؤ ٢٢: ٢٠).

أننا نفقد شيئًا هامًا في إحساسنا المسيحي إن كنا لا نتكلم بهذا الأسلوب. وأن قلنا غير هذا، نكون وثنيين في ثياب كارزين. ويكون الله بالنسبة لنا إلهًا خارجيًا، ومجيئه بالنسبة لنا مخيف ومظلم. حين نعتبر أن دينونته محاكمة وليست خلاصًا وساعة لقائنا معه مخيفة وليست هي الساعة التي نتطلع إليها بلهفة ومسرة.

لا يمكن أن يكون الجهاد الروحي مفرحًا إلى أن ندرك هذا. فالجهاد الروحي عنيف، وهو يتطلب أن ندين ذواتنا، ويحملنا بمسئوليات كثيرة – لأنه يجب علينا أن ندين أنفسنا لنتغير، ونستطيع مواجهة يوم الرب والقيامة الجديدة بقلب جزل ودون أن نحجب وجوهنا، بل ببهجة فائضة (إش ٥١: ١١).

فرحة الخلاص...

يقارن آباء الكنيسة بين ربنا يسوع المسيح ونوح: ويقولون أن وجود نوح في جيله كان دينونة، ولكنه في نفس الوقت كان خلاصًا، كان دينونة، لأن وجود شخص واحد فقط مخلصًا لله وفي سيرة قداسة، يدين غير المخلصين، السالكين في النجاسة، لأن الخطاة الذين رفضوا الرب

كان ممكنًا لهم أن يكونوا مثل هذا الواحد البار. فوجود شخص بار هو دينونة لجيله.

وأيضًا كان خلاصًا لجيله. لأنه كان يرضي الله قلبيًا، وكذلك الناس. وهذا ينطبق أيضًا على ربنا يسوع المسيح.

فرح راحة الضمير...

يوجد فرح آخر للدينونة بالنسبة لنا، أنها سوف لا تكون مفاجئة تباغتنا، لأننا طوال رحلة حياتنا في عملية تغير مستمر إلى أن نبلغ قامة ملء المسيح. أن الدينونة حوار مستمر بداخلنا طوال فترة حياتنا: "كن مراضيًا لخصمك سريعًا ما دمت معه في الطريق. لئلا يسلمك الخصم إلى القاضي، ويسلمك القاضي إلى الشرطي فتلقى في السجن" (مت ٥: ٢٥).

وقد فسر الآباء الروحانيون هذا المثل بأن قالوا إن الخصم ليس هو الشيطان – الذي لا نستطيع أن نعيش معه في تراضي، ولا نتفق معه على الأطلاق – ولكنه ضميرنا الذي يرافقنا طوال حياتنا، ولا يتركنا دقيقة واحدة في سلام، أنه دائم الانتقاد لنا، ويجب أن نتفق معه، وإلا سيأتي الوقت الذي نواجه فيه الديان، ويقف هذا الخصم ضدنا، ونقف موقف الاتهام. لذلك فنحن مع ضمائرنا باستمرار في "توتر حواري"، دائمًا هناك حوار داخلي بين تفكيرنا وعواطفنا، ومشاعرنا، وأفعالنا من جهة، وبين ضمائرنا من جهة أخرى، ضمائرنا تحاكمنا، ونحن نحاكمها (أو نبرر تصرفاتنا لها).

أننا بالطبيعة مظلمو الفكر، والقلب، والبصيرة ولا يمكننا أن نرى ما هو خطأ في حياتنا إلا حين ينير الله بنوره في أرواحنا. الأب يوحنا من كرونستادت، وهو قس روسي عاش في القرن التاسع عشر، له قول مشهور في كتاباته يقول فيه:

"أن الله لا يظهر لنا الجانب الرديء الذي فينا إلا حينما يلمح في داخلنا إيمانًا ورجاء كافيين، حتى لا نتحطم حين نرى بشاعة خطايانا".

وبعبارة أخرى، أننا كلما زاد فينا الإدراك بأننا خطاة، وفي ظلمة، كلما علمنا أننا قد دخلنا أكثر في نور الله. أي في نور الدينونة الإلهية، فندرك بكل أسى مقدار القبح الذي فينا، ولكن أيضًا نتهلل في نفس الوقت ملقين كل ثقتنا على الله الذي ائتمننا على مفهوم جديد عن أنفسنا كما يراها هو، وكما كانت مخفية عنا حين كنا لا نحتمل الحقيقية، فهنا أيضًا تصير الدينونة فرحًا. لأننا مع اكتشافنا لظلمتنا، ندرك أن هذا الاكتشاف متوقف على رؤية الله أن فينا إيمانًا كافيًا، ورجاءً كافيًا، وعزمًا كافيًا. وهو يعلم أننا نستطيع الآن أن نعمل شيئًا. من ثم، فإن الفرح والجهاد الروحي يسيران معًا جنبًا إلى جنب.

لو اقتصر الجهاد الروحي على معرفتنا ما هو سيء فينا فقط، فإن هذا يمكن أن يقودنا إلى اليأس وظلام الفكر والروح، ومن كثرة اليأس تهبط عزائمنا، ولن نستطيع أن نبتهج بقيامة ربنا يسوع المسيح، لأننا سنظن آنذاك أن القيامة لا علاقة لنا بها ونحن موثوقين في هذه الظلمة،

أن الدينونة الذاتية مع الرجاء، هي سر الفرح في الجهاد الروحي، حيث نخرج من رباطات الظلمة إلى عمل الله الخلاصي بالقيامة من الأموات.

كيفية محاسبة النفس...

الخطوة الأولى لمحاسبة النفس، هي إدراك ما احدثته الخطيئة فينا من انقسام، انقسام بيننا وبين الله، وانقسام بيننا وبين الآخرين، وانقسام بيننا وبين ذواتنا، نسأل أنفسنا.

+ ما مقدار اختلاف مشاعر قلبي، وأفكار ذهني عن بعضهما.
+ هل تتجه إرادتي إلى غرض واحد؟ أم هي دائمة التغير؟
+ هل هناك كمال معين في داخلي؟
+ وما مقدار انفصالي عن الله وعن اقربائي؟

هذا التناقض الذي بين الشخص وقريبه يحدث في الوقت الذي يبرر فيه ذاته، ويدل أننا بدأنا نتغرب عن أنفسنا الحقيقية.

أن الفيلسوف الوجودي سارتر قال: "الجحيم هم الآخرون" والواقع أننا حينما نبعد الآخرين عنا نسجن أنفسنا في عزله لا مفر منها، حتى أن الكاتب الفرنسي نفسه قرر في النهاية "إن الجحيم هو في أنفسنا".

إن تأكيد الذات هو عدم الاستقرار، ونضوب المحبة لأن المحبة هي أنكار للذات، وتأكيد الأحباء الآخرين، تأكيد الذات يجعل وجودنا مهزوزًا، ويجعلنا لا نثق في محبة الآخرين، أننا نؤكد أنفسنا، لنثبت أن وجودنا معروف وانه غير مهدد، وهذه صفات الصغار غير الناضجين.

مقياس المحبة...

عندما نحاول أن نقيس المحبة التي بداخلنا، ربما نكتشف أمورًا كثيرة محزنة. كم عدد الأشخاص الذين نحبهم؟ أثنين، ثلاثة... وربما لا يكثر العدد عن هذا. وأعني الأشخاص الذين نحبهم أكثر من أنفسنا...

ولكن ماذا تعني محبتنا بالنسبة لهم؟ هل محبتنا دائمًا سبب فرح لهم؟ هل محبتنا تسمح لهم أن يكونوا أحرارًا؟ هل محبتنا تعطيهم الدافع للحب والفرح؟ أم أن محبينا يشعرون خفيًا أنهم ضحية محبتنا، ولو أتيحت لهم الفرصة أن يتكلموا سيتوسلون إلينا قائلين:

"أرجوك، قلل محبتك لي، ورد لي حريتي، فأنا سجين محبتك، لأنك في محبتك لي تريد أن تقرر كل شيء في حياتي وتشكلني بحسب هواك، وإنك لو لم تحبني لاستطعت أن أكون طبيعيًا، وعلى سجيتي".

إلا يحدث هذا كثيرًا بين الوالدين وأولادهم، وبين الأصدقاء وبين الأزواج والزوجات؟

كم تساوي محبتنا للآخرين!، وكم هي رخيصة بالنسبة لنا! الله يأمرنا أن نحب بعضنا كما أحبنا هو، وبذل ذاته كان هو طريقه في محبته... (يو ١٣: ٣٤).

أن هذا مستوى مرتفع للحب، يمكننا نحن أن نبدأ بمستوى أقل من بذل ذواتنا، نبدأ بالوصية المعطاة لنا من ربنا يسوع المسيح: فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم. لأن هذا هو

الناموس والأنبياء (مت ٧: ١٢). أعط لقريبك ما تريده لنفسك من سعادة وحرية ومحبة بلا أنانية.

يجب أن ننتبه لما أسماه القديس يوحنا ذهبي الفم "الجانب المظلم للمحبة الشيطانية" حين نكره أشخاصًا من أجل شخص نحبه، أما لأن قلوبنا محصورة جدًا، أو لأننا نحس أنه واجب علينا – من أجل إخلاصنا للبعض – أن نضطر أن نكره ما يسمونهم أعداءهم. ولكن هذه ليست محبة مسيحية، ولا حتى إنسانية.

أتذكر كم كنت مبهورًا حين تقابلت مع أحد قادة كنيسة تشيكوسلوفاكيا أثناء غزو هذه البلاد، وقال لي: "بلغ كل شخص أن لا يكره غزاتنا من أجل محبته لنا، فالذي يكره الواحد من أجل الآخر يعطي الفرصة لإبليس".

كان مشغولاً ومؤمنًا بالمعركة، ولكنه كان يعلم أن المعركة الحقيقية كائنه في قلوب الناس بين المحبة والبغضة، بين النور والظلمة، بين الله والإنسان العتيق الممتلئ بالإثم.

حينما تختار البعض لتحبهم، وترفض البعض فتكرههم، فإن المجموع الكلي سيزيد في صالح الكراهية، ويجد إبليس منفعته في ذلك. لأنه لا يهمه من تكره طالما أنك تكره. لقد وجد فيك ثغرة ليمر منها ويزحف إلى قلبك ليهاجم كل مواقف المحبة الإنسانية التي يعلمنا المسيح إياها.

يجب أن نتعلم أن نميز روح الله. من روح رئيس هذا العالم، والمحبة الإنسانية هي المحك الحقيقي.

تقبلنا لذواتنا...

أن المحبة لا تكون للآخرين فقط بل لذواتنا أيضًا. يجب أن نتعلم أن نتقبل ذواتنا. كثيرًا ما نميل أن نعتبر الأمور المحبوبة فينا أنها طبيعتنا الأصلية، أما ما نجده – ويجده الآخرون – فينا من قبح فهو شيء طارئ فقط. ننسب فضائلنا إلى أصالة ذواتنا أما رذائلنا فنلقي بتبعتها على الظروف:

سألت صحفية ثرية أحد الآباء الروحانيين عن خادمة لها تثير أعصابها وتجعلها تنفجر غضبًا مرات كثيرة في اليوم، وتطلب منه المشورة في هل تطردها أم لا فأجاب الشيخ:

لا... لا تطرديها. أنها ملاك مرسل لك من الله كي يعرفك مقدار الغضب الكامن في نفسك.

فليست الظروف إذن هي التي تجعل الغيوم تظلم أرواحنا، وليس هو ذنب الله الذي نتهمه طوال الوقت كي نبرر أنفسنا. كم مرة سمعت أناسًا يقولون بأسلوب ساخر "خطايانا!" ثم يتوقفون برهة ليأخذوا أنفاسهم ويبدأوا بحديث طويل عن ظروف الحياة الصعبة التي ابتلاهم بها الله والتي تضطرهم إلى ارتكاب الخطايا اضطرارًا. كالحياة مع زوج مناكف، أو آلام مرضية، أو ثورة روسيا. كثيرًا ما كنت اقترح قبل أن أصلي على

شخص تائب صلاة التحليل أنه لكي يحدث سلام بينه وبين الله، عليه أن يغفر هو لله ما يعتبره أنها ظروف منعته من أن يكون قديسًا، ويصحح مفهومه في هذا الأمر، ويتحمل هو المسئولية كاملة على عاتقه.

وفي محاسبتنا لأنفسنا، ينبغي أن نلقي بكل الملامة عليها. فقد قال أحد أباء صحاري مصر: ليس هناك أفضل من أن يلقي الإنسان بالملامة على نفسه في كل الأمور.

الله يريدنا على علاتنا لكي يعمل فينا...

حينما ننظر إلى أنفسنا لا نجد إلا الجدب والقفر والخواء، ولكن حينما يكون لنا نظرة الإيمان الملهم نشعر أن الله سيجعل من ذواتنا جنة عدن. يجب أن نملك الثقة في هذا الخواء أنه حامل للجمال والتناسق. تمامًا كما ينظر الفنان للمواد الخام التي بين يديه وإمكانية إبداع عمل فني جميل متناسق فيها. هكذا خامة حياتنا الأرضية تحمل في طياتها حقيقة الحياة الملكوتية، فيجب على كل واحد منا بإرشاد الله، وبمساعدة الآباء الروحانيين، والأصدقاء الحكماء أن يميز قدراته الخفية الخاصة به. ويحدد كل صفاته الحسنة والسيئة ويجعل منها منفعة، كي ينال في النهاية عملاً فنيًا، هي نفسه الحقيقية كما يعبر القديس إيرناؤوس: "بهاء الله، هو الشخص الذي عرف ذاته".

هناك قصة مثيرة عن المهاتما غاندي: فقد اتهم بالتناقض في تصرفاته، لأنه في بدء حياته قاد البحارة في إضراب عام، وبعد أن فاز

في المعركة بدأ ينادي بمبدأ عدم العنف، و المقاومة السلبية، فأعطى جوابًا حكيمًا لناقديه قائلاً: لقد كان هؤلاء الرجال جبناء فعلمتم العنف كي أتغلب على جبنهم، ثم عدم المقاومة لكي أخضع مشاغباتهم.

ألم تكن واقعيته أحكم وأكثر تأثيرًا من المنادة بالوداعة والتواضع لأناس جبناء، فيتخذون الصفات المقدسة ستارًا لرذيلتهم.

سأل أحدهم أحد أحبار الكنيسة قائلاً: كيف أتحرر من الأفكار التافهة؟ فهتف الأسقف قائلاً: لا تحاول فليس لديك أفكارًا أخرى، وأن حاولت ستدخل إلى فراغ. حاول أن تكتسب فكرة تلو الأخرى من الأفكار النافعة، وهي من تلقاء ذاتها ستأخذ مكان الأفكار التافهة.

ألا ينطبق هذا على ما قاله ربنا يسوع المسيح في مثل السبعة الأرواح النجسة (مت ١٢: ٤٥).

ينبغي أن نتعلم بيقظة وأدراك، واعتدال وعمق وأيضًا بأمل باسم على كل التعقيدات التي في كياننا لنرى احتمالات الحاضر والمستقبل، ولكن هذا يحتاج منا إلى شجاعة وإيمان. لعلنا نذكر العبارة المؤثرة التي قالها الراهب فنسنت:

يا إلهي، إنني قبيح جدًا في نظر الناس، ولكني ربما أكون شيئًا ما في نظرك".

كعروس النشيد، ربما نكون سوداء في نظر الناس ولكننا في نظر الله لنا صفة الجمال، أننا أعزاء الرب، وهو يثق فينا، وإلا ما كان يجاذف بأن يدعو كل واحد منا للبقاء معه – ليس لدقيقة عابرة بل – في الأبدية.

نستطيع في كل لحظة من حياتنا أن نكون واقعيين، ونكون ذواتنا، حين نقبل أنفسنا كما هي عليه، ولا نحاول أن نقلد صـــورًا، أو نطبـــق صورًا خيالية على حياتنا.

اكتشاف صورتنا الإلهية...

لا نستطيع اكتشاف حقيقة أنفسنا عن طريق استمرار فحصـــها، الله وحده هو القادر أن يكشفها لنا، كل واحد منا صورة الإله الحي، ولكن هذه الصورة من طول الأهمال قد تلفت لدرجة يصعب معها تمييزهـــا، إلا أن بعضًا من ملامحها الأصلية متبقية، ويستطيع أن يفحصها أحد المتخصصين ويبدأ بما هو نقي وأصلي فيها، وينظف اللوحة من الزوائد المتراكمة.

أن القديس بولس ينصحنا أن نجد أنفسنا في المسيح، وإن يكـــون المسيح فينا.

فعلينا إذن أن لا نتوقف عند ما هو خطأ وقبيح وسيء فينا، بـــل لنتعلم أن نرى ما هو موجود من صورة الله فينا. وحينما نكتشفه نحرص أن نكون أوفياء لما فينا من حق وجمال.

فبدلاً من أن نتساءل باستمرار ما هو الخطأ في؟ لماذا لا نســـأل أنفسنا بأي طريقة أنا أشابه الله؟ وفي أي النقاط أتفق معه. ما مدى بعدي عن الطريق الموصل إلى قامة ملء المسيح؟ إلا يكون هذا أكثر إلهامًـــا في جهادنا الروحي نحو الكمال؟

الاستفادة من الفرص التي يتيحها لنا الله...

أننا محاصرون من كل جهة بهموم واهتمامات، ومخاوف، ورغبات، ولذلك نحن قلقون داخليًا، لدرجة أننا نادرًا ما نعيش بدواخلنا، نحن دائمًا متغربون عن ذواتنا في دوامة هذه الحياة وفي حالة من البلبلة، فإما أن يتدخل الله ويعمل وإما أن نرجع إلى أنفسنا ونبدأ الرحلة الداخلية التي ستقودنا إلى الله.

يحاول الله بلا انقطاع أن يدعونا للرجوع، لنفتح باب سجننا الداخلي، وقد تبدو محبته الحكيمة البعيدة عن الإدراك، قاسية في بعض الأحيان، ألم يقل الملاك لهيرماس الراعي: "أفرح يا هيرماس، فإن الله لن يتركك أن لم يكسر قلبك!!". نادرًا ما ندرك رحمة الله المعلنة لنا عن طريق المرض، والحرمان، والوحدة. ومع ذلك، كثيرًا ما تكون هي الوسائل التي بها يضع الله حدًا لاضطرابنا الداخلي والخارجي الذي يجرفنا أمامه كالسيل. كثيرًا ما نتنهد قائلين: "آه لو لدي وقت أقضيه في سلام وهدوء، فأعرف عظمة الحياة ويقين الخلود!!".

ثم يرسل الله لنا هذه الأوقات حين يصادفنا مرض أو حادث ولكن بدلاً من أن نفطن أن هذه الفرصة قد أقبلت نضيعها في الشكوى واليأس، كي نعود بأسرع ما يمكن لحالتنا الأولى رافضين الهبة التي تخيفنا والمعطاة لنا من قبل الله. وحينما يأتي الحرمان بدلاً من أن ننمو ونقدر الحياة أو الموت، نتذمر وننطوي على أنفسنا، ونشفق على ذواتنا، ونفقد

منظر الأبدية التي نستطيع أن ندخلها مع ذاك الذي قال عنه الرسول بولس "إنه متسربل بالأبدية الآن".

وحتى المقدرة على الاستعانة والاستفادة من الظروف المعطاة لنا من الله يتطلب تدريبًا داخليًا وخارجيًا، وإيمانًا مضيئًا يستطيع أن يميز طريق الله.

ولا يعني كلامي هذا أن الله هو المسئول عن كل شيء (كالبلايا والمصائب) التي تجري في العالم. كلا. فالتعليم المسيحي القويم يقول: أن هناك ثلاثة رغبات تتنافس لأجل مصير العالم:

١. **رغبة الله:** وهي حكيمة، محبة، حرة، لها مقدرة أن تعمل بقوة مطلقة وبصبر متناهي.

٢. **رغبة إبليس وقوات الظلمة:** وهي دائمًا شريرة وليس لديها القوة لتصل إلى نفوس الناس.

٣. **رغبة الإنسان الساقط:** وهي غير مؤكده، مترددة بين نداء الله وخداع إبليس، لها قوة خفية في حرية الاختيار بين الله وخصمه، بين الحياة والموت، بين الخير والشر.

التدريبات الروحية...

أن التداريب الروحية حينما نتصورها في ذهننا، نفكر أنها هي قوانين الحياة، وقوانين التفكير والتأمل، وقوانين الصلاة، وكل ما نظنه

أن يكون نموذج الحياة المسيحية الحقيقية، ولكن حينما نلاحظ أن بعض الأشخاص قد أسلموا أنفسهم لتداريب روحية قاسية، بل نلاحظها على أنفسنا أيضًا، ونجد النتيجة أقل بكثير مما توقعنا. وهذا يحدث غالبًا **لأننا نركز على الوسائل وليس على الغرض**، فلا نصل أبدًا، أو نجني ثمارًا زهيدة جدًا حتى أنه لم يكن يوجد داعي أن نصنع كل هذا الجهد لنجني القليل.

إنني أعتقد أن هذه النتائج قد حدثت، لأننا لم نفهم التدريب الروحي والغرض منه. يجب أن نفهم أن التدريب الروحي يختلف عن التدبير، فالتدريب (باللغة الإنجليزية) discipline وهي مأخوذة عن كلمة disciple أي تلميذ، فالتلمذة شرط أساسي للتدريب الروحي.

التلمذة الروحية...

فحالة التدريب الروحي هي حالة تلميذ مع معلمه، ومع ما يتعلمه. ومن الناحية العملية نلاحظ الآتي:

التدريب يحتاج إلى رغبة صادقة وتصميم أن نتعلم، مهما كلفنا هذا. أنا أعلم أن عبارة "مهما كلفنا" تختلف في مفهومها بين شخص وآخر، ولكن على أية حال فإن هذا يتوقف على الدافع، والاقتناع والشوق الذي لدينا للتعلم.

قد لا نستطيع أن نكتشف رغبة قلبنا الصادقة للتعليم، وفي كثير من الأحيان نرغب أن نتعلم نقطة معينة على شرط أن لا يكون المجهود

كبيرًا، وعلى شرط أن نضمن أن النتيجة النهائية تستحق الجهد، لذلك لا نندفع لنتعلم تلك النقطة بكل قلوبنا، وكثيرًا ما تفتر حماستنا ولا ننجز ما نستطيع انجازه.

لذلك، فإن الشرط الأول من شروط التلمذة هو الدافع القوي. الذي سيعطينا كمال غرضنا.

يجب علينا أيضًا أن نكون مستعدين لأن ندفع ثمن التلمذة. فالتلمذة لها ثمنها دائمًا من بدايتها إلى نهايتها، أنها تعني التغلب التدريجي على كل ما هو ذاتي وشخصي، لننمو في شركة من هو أعظم من الذات، الذي سيحل محل الذات.

يوجد دائمًا وقت يخيم فيه الخوف على التلميذ، وقت تفريطه في ذاته، وتخليه عن كيانه القديم، على التلميذ أن يواجه موقف الموت هذا، الموت عن الذات كي ينال حياة أعظم من حياته. هذا يتطلب عزمًا وشجاعة وإيمانًا من التلميذ.

التلمذة أيضًا تبدأ بالصمت والاستماع، في التلمذة أننا لا نتكلم ولكن الواقع أن عقولنا تكون في عمل، وكذلك عواطفنا، وتتجاوب إرادتنا مع ما نسمعه أو نتنافر ضده، التلمذة الحقيقية هي عكس كل هذا، أنها صمت حقيقي، هو راحة تامة للعقل والقلب والإرادة، وحتى الجسد، حتى نكون عالمين تمامًا بكل كلمة نتقبلها، ومتنبهين لها، ومع ذلك مستريحين، الصمت الذي اقصده هو الصمت اليقظ، الرزين، المرن في عملية دقيقة وحساسة

هي عملية التدرب الروحي، أنه الصمت الذي يلتقط كل صوت وحركة فهذا الصمت الحي هو أول ما تتطلبه التلمذة، وهذا يتطلب منا جهدًا في أن نضبط انتباهنا، وجسدنا، وعقلنا وعواطفنا باستمرار.

هدف هذا الصمت هو أن ننال ما ستمنحه لنا الكلمة التي ستدوي في السكون. ويجب أن نكون على استعداد لسماع هذه الكلمة مهما كانت، هذا يتطلب تكاملاً في المعرفة والأخلاق. لأننا كثيرًا ما ندخل إلى التداريب الروحية آملين أن نسمع ما توقعنا أن نسمعه، ولا نفهم صوت الله لنا بطريقة فهمنا الخاص، وهكذا لا نسمع ولا نفهم صوت الله الحقيقي، أما في تكامل المعرفة والأخلاق نستطيع أن نسمع ونصغي، ربما يكون الصوت واضحًا أو غامضًا، ولكننا على أية حال سنسمع ما نحتاج أن نعرفه ونبدأ به، يكفينا أن يكون لدينا إشارة أن نصمت أكثر وننتبه أكثر.

ولكن لكي نسمع ينبغي أن نكون على استعداد لقبول كل كلمة تقال لنا، ولكي نفهم يجب أن نستعد لفعل كل ما يأمرنا الله به.

طاعة صوت الله...

يقودني هذا إلى نقطة أخرى في هذا الصدد لدراسة التلمذة الروحية:

أن كنا مكتفين أن نسمع بتلهف فقط، دون أن نفعل ما نسمعه، قريبًا جدًا سوف لا نسمع شيئًا على الاطلاق، أن الله لا يكلم قلوبًا أو عقولاً غير مخلصة وغير مطيعة. يتكلم الله مرة أو مرتين وعندما لا

يجد استجابة يتراجع بحزن عنا، إلى أن نشتهي، نحن أنفسا، صوت الله مرة أخرى، نشتهي الحق، يكفي أن نشتاق إلى قبول الكلمة الذي هو "خبز الحياة" مع تصميم داخلي على العمل بها، فإن هذا مهم جدًا في حياة التلمذة الروحية.

حينما كان السيد المسيح يتكلم مع تلاميذه أو مع الجموع الملتفة حوله، لم يُلق بتعليم عام يقبله الجميع. كمية كبيرة من تعاليمه كانت موجه إلى شخص معين في ظروف معينة. وكان على كل شخص أن يتقبلها ككلمة الله الموجهة له شخصيًا، آخرون من الجموع الغفيرة لم يجدوا في كلمته جوابًا لتساؤلاتهم.

علينا، في قراءاتنا للإنجيل أن نستخرج هذه العبارات التي تنطبق على حالتنا مباشرة، لنصبح عاملين إرادة الله.

توجد عبارات في الإنجيل نفهمها بعقلنا، وعبارات أخرى لا نفهمها، توجد عبارات تخيفنا، وأخرى بحسب قول القديس لوقا "تجعل قلوبنا تحترق في داخلنا" (لو ٢٤: ٣٢).

هذه العبارات والوصايا والأمثلة تحس أنها موجهة إلينا مباشرة، ونحس أن الرب يسوع يفهمنا ونحن نفهمه، ونحس أيضًا أنه على دراية كاملة بكل ما نخوضه من تجارب الحياة، يجب أن لا ننسى أن نطبق هذه الكلمات التي قالها لنا في كل دقيقة من حياتنا، وكلما تراخينا في طاعة

وصاياه كلما انقطعت علاقتنا بالمسيح، ونتراجع ونرفض ثقل حياة التلمذة الروحية لشخصه المبارك.

ثمار طاعة مشيئة الله...

أن التلمذة لإطاعة مشيئة الله بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، هي في الواقع اختبار ولائنا وإخلاصنا لشخص المسيح، فلنتعلم تدريجيًا أن ندوم مدققين وحارين في طاعة الله. علينا أن نعمل بكل دقة في كل دقيقة بكل قوانا، وبأحسن ما نستطيع، وبأعظم كمال أخلاقي، مستخدمين كل ذكائنا، وخيالنا، وإرادتنا، ومهارتنا وتجاربنا لإطاعة مشيئة الله.

إن لم نفعل هذا تصير تلمذتنا خيالية، ونظل ضائعين في تلمذتنا لأنفسنا، حين نضع تداريب لأنفسنا تبهجنا، ونفتخر بها غير مصغين إلى صوت الله.

فاللحظة الحرجة في تلمذتنا، هي في المقدرة على الصمت والاستماع مع رفض لذواتنا، ونسمح للسيد المسيح أن يكون هو فكرنا، وإرادتنا، وقلبنا، فإن كنا نرفض أنفسنا، ونقبل حياة المسيح مكان حياتنا، ونهدف إلى ما يعبر عنه بولس الرسول: "أحيا لا أنا بل المسيح يحيا في" لا ندعى تلاميذ على الاطلاق.

هذا الجهاد يقودنا إلى غلبة أنفسنا، حين نميت الإنسان العتيق كي يحيا فينا الإنسان الجديد، عاملين فقط بما يقوله الإنجيل.

يقول القديس مرقس الناسك، وهو احد آباء الكنيسة القـدامى: "لا يتمم أحد إرادة الله في أعماله، أن لم يكن قد حققها في قلبه، لأن داخـل قلب الإنسان هو الذي يجب أن يتغير".

لسنا مطالبين أن نشابه السيد المسيح ونقتدي به خارجيًا، ولكننـا مدعوون أن نصير داخليًا مثله. أن نشاركه الحياة في جسده السري الذي هو الكنيسة، يجب علينا أن نغلب الإنسان العتيق في فكرنا وقلبنا وإرادتنا وذلك بأن نعمل بالإنجيل حتى ضد إرادتنا.

ولكن الجهاد الأصعب هو في الفكر والقلب، يجب أن نكيف أفكارنا وقلوبنا، ليكون لنا فكر المسيح – نتأمل في الإنجيل، نتأمل بعمق فـي مـا يقوله الله، في كل حقيقة معلنة، مع التمني والشوق أن يكون لنا هذا الحال. نجاهد أن نرى كلمات الله تديننا وفي نفس الوقت تقودنا إلى مستوى أعلى، فنتغير من مجد إلى مجد حتى إلى تلك الصورة عينها (٢ كو ٣: ١٨).

الصلوات المقروءة...

كثيرًا ما نسمع اعتراضات على صلوات الأجبية، وأصوات تقول: ...لماذا نصلي بكلمات معدة بواسطة الآخرين؟ ألا تكفي كلماتي لتعبـر عما في قلبي وفكري؟

كلا... أن هذا لا يكفي، لأن ما نهدف إليه ليس هو أن نعبر عـن أنفسنا، بل أن نتعلم متطلعين إلى مستوى أعلا من أنفسنا فـي الصـلاة، كما يتعلم التلاميذ معنى التذوق الموسيقى، والفن الرفيـع مـن أسـاتذة

عظام. هكذا علينا أن نتعلم عن الحياة الروحية، ما يوصلنا إلى الهدف عن طريق أعضاء حية في جسد المسيح، نتعلم منهم كيف نصلي، ليكون عندنا استعداد الفكر والإرادة والقلب ما نؤهل به أن نكون مسيحيين، وبهذه الطريقة أيضًا نرفض أنفسنا لنقبل ما هو أعظم وأجمل منها ليسكن فينا فيعطينا الشكل والدافع والاتجاه.

هذه هي العناصر الجوهرية للتلمذة الروحية، أنها الطريق الذي فيه ننفتح على المسيح وعلى نعمة الله. كل ما نستطيع عمله في جهادنا النسكي، هو أن ننال نعمة الله.

قد نميل أن نفكر بأن يكون هدفنا هو حياة عالية عميقة، تصوفيه، ليس هذا هدفنا، الحياة التصوفية هي هبة من الله، أن ما يجب أن نهدف إليه نظير محبة الله لنا التي استعلنت وظهرت في ربنا يسوع المسيح، هي أن نصير تلاميذ صادقين له، أن نتكرس لله، أن نقدم أنفسنا ذبيحة لله، ذروة الجهاد النسكي هي أن نقدم لله إخلاصنا وحبنا، وبعد ذلك هو سيتمم كل شيء بحسب وعده: "يا ابني أعطني قلبك، ولتلاحظ عيناك طرقي" (أم ٢٣: ٢٦).

والآن نحن مستعدون أن نبدأ رحلتنا نحو الله، فلنحمل سلاح الله الكامل، لكي نقدر أن نقاوم في اليوم الشرير، ولنمنطق أحقاءنا بالحق، لابسين درع البر، حاذين أرجلنا باستعداد إنجيل السلام حاملين فوق الكل ترس الإيمان... وخوذة الخلاص وسيف الروح الذي هو كلمة الله (أف ٦: ١٣-١٧).

سنتبع الطريق الذي سلكه كل سائح مسيحي من قرون، مهتـــدين بعلامات الأسفار المقدسة، وفي نهاية رحلتنا يمكننا أن ننسى أنفسنا حتى نستطيع أن نرى مناظر تفوقنا، وهي تقودنا للثقة الكاملة، فتحول اتجاهنا نحو الله لبداية عهد جديد معه، وللعودة لوطننا (السماء).

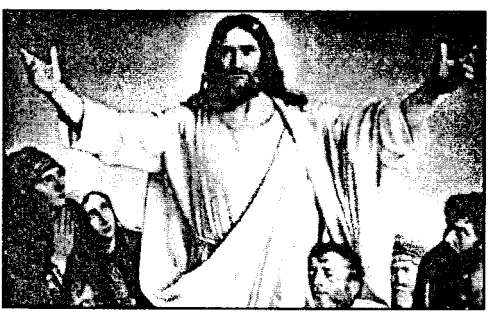

ثانيًا

الرحلة إلى الله

قصة بارتيماوس الأعمى

وجاء إلى أريحا، وفيما هو خارج من أريحا مع تلاميذه وجمع غفير، كان بارتيماوس الأعمى ابن تيماوس جالسًا على الطريق يستعطي، فلما سمع أنه يسوع الناصري ابتدأ يصرخ ويقول: يا يسوع ابن داود ارحمني. فأنتهره كثيرون ليسكت. فصرخ أكثر كثيرًا يا ابن داود ارحمني. فوقف يسوع وأمر أن ينادى. فنادوا الأعمى قائلين له ثق قم، هوذا يناديك. فطرح رداءه وقام وجاء إلى يسوع فأجاب يسوع وقال له ماذا تريد أن أفعل بك. فقال له الأعمى يا سيدي أن أبصر. فقال له يسوع أذهب إيمانك قد شفاك. فللوقت أبصر وتبع يسوع في الطريق (مر ١٠: ٤٦-٥٢).

اكتشاف عمانا الداخلي...

اعتقد أنه من بين الأسباب التي تمنعنا أن نكون على طبيعتنا، ونجد طريقنا، هو أننا لا ندرك مدى عمى نظرنا، لو علمنا فقط أننا عميان، كم سنشتاق أن نبدأ! سنطلب الشفاء من أي مصدر كما فعل بارتيماوس، من بشر، من أطباء، من كهنة... الخ. ولكن بعد أن نفقد الأمل في بني البشر الذين ليس عندهم خلاص ربما نرجع إلى الله. المأساة، أننا لا ندرك أننا عميان. أمور كثيرة تتخايل أمام أعيننا، لذلك

نعجز عن أدراك غير المرئي لأننا عميان. أننا نعيش في عالم تستحوذ الأمور المادية فيه على كل انتباهنا، لأنها تؤكد نفسها لنا ولا تبذل جهدًا لإثبات وجودها لأنها موجودة، أما الأمور غير المرئية فأنها لا تؤكد نفسها – لذلك وجب علينا أن نفتش عنها، ونكتشفها، أن العالم يفرض تأثيره علينا، أما الله فإنه يتلمسنا برقة وحياء. أتذكر راهبًا شيخًا قال لي:

أن الروح القدس كطائر عظيم خجول يتراءى عن بعد، وعليك أن لا تتحرك حين تراه قادمًا لئلا تخيفه، دعه يأتي إليك.

ربما فكر الراهب الشيخ حين قال هذا القول، بالروح القدس الذي يظهر في شكل حمامة.

أن الطائر يأتي مستعدًا لأن يهب نفسه ولكن في خجل، في قصة "الأمير الصغير" يشرح الراهب أنطوان على لسان ثعلب صغير، كيف يمكن للأمير أن يروضه قائلاً: يجب أن تكون صبورًا، أجلس بالقرب منه وأنظر إليه بعينيك، ولكن لا تقل له شيئًا، لأن الكلام يحدث سوء تفاهم، وكل يوم اقترب إليه أكثر. إلى أن تصيرا صديقين.

لأن المحبة الكاملة ستطرد الخوف خارجًا. أن النعمة الإلهية غير مبتذلة، العلاقة مع الله لا تأتي بالطريقة السهلة، أن الله لا يفرض وجوده على أحد ولكنه يأتي للقلوب المتواضعة التي تطلبه بكل حب وشوق ولهفة.

العالم الخارجي يؤكد نفسه بنفسه، أما العالم الداخلي فإنه لا يجذب الانتباه.

علينا إن نراقبه، كما يراقب إنسان طيرًا في الغابة أنه يأخذ موضعه بعيدًا في السكون ككلمات الشاعر:

طائر حكيم عجوز　　يقف على شجر السنديان
كلما رأى أكثر　　كلما تكلم أقل
وكلما تكلم أقل　　كلما سمع أكثر

لماذا لا نصير كلنا كهذا الطير؟

الإمكانيات الهائلة في أعماق الإنسان...

إن العالم المادي يعمينا، وينسينا العمق الذي يستطيعه الإنسان، إن الإنسان صغير، ولكنه أيضًا عظيم، عندما نرى أنفسنا بالنسبة للعالم الفسيح الواسع، نرى أنفسنا كذرة رمل تافهة، زائلة، صغيرة. ولكن عندما ندخل إلى أعماقنا نكتشف أنه لا يوجد شيء في اتساع العالم كله يملأ فراغنا الداخلي، وكل الخليقة تكون كذرة رمل بالنسبة لنا، لا يمكن أن تملأنا، أو تتمم عظمتنا، الله وحده الذي خلقنا لنفسه، وعلى صورته يستطيع أن يفعل هذا.

أنا على صورة عظمة الله، وهو قد نزل إلى حقارتي، أن عالم المادة له غموض، وكثافة، ووزن، وحجم ولكن ليس له عمق إنه محدود ويمكن أن نحتويه مركز الدائرة هو أعمق نقطة فيها، ولكن أن تحركنا من هذه النقطة سنذهب إلى السطح. أما قلب الإنسان، فيتحدث الكتاب المقدس عن عمقه الذي لا يمكن قياسه، وطبيعته المتسعة التي بلا حدود، وأعلى من كل قياس، هذا العمق يصل إلى الله غير المحدود.

سوف لا ندرك حقيقة عمانا، إلا حينما نفهم الفرق بين الكائنات التي تؤكد وجودها، والكائن الذي نشعر به بقلوبنا فنبحث عنه، حينما نفهم الفرق بين العالم الكثيف الثقيل المعتم الذي حولنا، وعمق الإنسان الذي لا يملأه إلا الله وحده، بل أكثر من هذا، الله الذي يملأ أعماق كل الخليقة، الذي هو الكل في الكل.

هنا فقط سنكتشف عمانا، وأننا قد تعامينا عن غير المنظور بالمنظورات.

فاغفالنا لغير المنظور لندرك العالم المحسوس فقط، يعني أننا نبقى خارج ملء المعرفة، وخارج التجربة الحقيقية الكاملة التي هي، العالم في الله، والله في قلب العالم.

كان بارتيماوس الرجل الأعمى، يعلم بكل أسى أنه بسبب عماه الجسدي، قد فقد رؤية العالم المنظور، فكان يصرخ بألم عميق، وبرجاء إلى الله الذي أحس به، عندما مر عليه الخلاص، كان يشعر أن نفسه معزولة وأنه يشقى بهذه العزلة.

السبب الذي من أجله كثيرًا لا نستطيع أن ندعو الله بهذه الصورة، هو أننا لا نعلم مدى عزلتنا، ولا ندرك مدى عمانا عن رؤية العالم ككل، تلك الرؤية التي تهب الحق كاملاً لرؤية العالم نفسه، فلو تعلمنا أن نصير عمياناً عن المنظورات، كي نستطيع أن نرى ما وراء المنظورات في عمق. سنصل إلى الله الذي هو فينا وفي كل ما حولنا.

وضوح الرؤيا...

أن وضوح الرؤيا، ربما بالنسبة للقديسين وليس بالنسبة لنا، يرون نورًا باهرًا ساطعًا جدًا: يتحدث عنه سمعان اللاهوتي فيقول: الغمام الإلهي نور فائق، نور يعمي.لدرجة أن الذي يراه، لن يرى مرة أخرى ويمكن أن نكون عمياناً بعيون مفتوحة.

فمشاعرنا هي التي تلون نظرتنا، كالمنظار...

- قد ينظر البعض بنظرة اللامبالاة، كما رأى المارة بارتيماوس.

- وقد ينظر شخص بعين الجشع، كما ينظر الإنسان ذو الفهم الشيطاني إلى بقر يرعى في الحقول، فلا يفكر إلا في اللحم البقري.

- وقد ينظر البعض بعين الكراهية، وهي عين إبليس الذي لا يرينا شيئًا سوى الشر.

+ وأخيرًا نستطيع أن ننظر بعين الحب، بقلب طاهر، فنرى الله، وصورته في الناس، حتى في أولئك الذين أصبحت صورته فيهم غير واضحة.

نستطيع أن نرى بالقلب، الشيء الجوهري غير المرئي للعين. ينبغي أن نعترف، أننا لا ندرك جوهر الأمور، ولا فحوى ووضع الأبدية بالنسبة للعالم كله. ويمكننا فقط أن نعرف تلك الأمور عن طريق تجارب أساسية متأكدين من وجود عالم داخلي.

وبيقين الإيمان، يمكن أن نؤكد وجود غير المنظور وعلينا أن نجد في البحث وراءه، من خلال، وفي قلب المنظور ذاته.

هذا العمل الإيماني يحمل في أعماقه قبول شهادة الذي أدركوا العالم غير المنظور، وبدون هذا الإيمان لا نستطيع أن نبدأ في البحث، فإننا يستحيل أن نبدأ في البحث عن غير المرئي أن كنا نعتقد بأن لا وجود له.

ولكن أمامنا شهادة ليس من شخص واحد ولا من اثنين ولكن من ملايين الملايين عبر تاريخ المسيحية وغير المسيحية قد جربوا غير المرئي، وشهدوا بوجوده.

فأعتقد أنه يجب علينا أن نوسع مجال رؤيتنا وفهمنا للحياة بصفة عامة. ففي أيامنا هذه مازلنا نعيش تحت وهم أن كل ما هو ليس محسوس، فهو مشكوك فيه. رغم ما بينه علم النفس أن هناك عالم بأكمله في حياة الإنسان الداخلية، غير محسوس، وحينما أقول غير محسوس لا أقصد أنه غير معقول، يوجد مثلاً دائرة الحب البشري المتسعة، سواء كانت صداقة، أو محبة عائلية، أو الحب الذي يتخذ فردًا من وسط حشود البشر، ويجعل لنا علاقة خاصة به، فيجعلنا نعيد تقييم الكون بأكمله.

هذه تجربة غير محسوسة، ولكنها خبرة شائعة في العالم كله.

ففي حالة فتى وفتاة وسط جموع الناس يعيشان كالمعتاد، وفجأة يحب كل منهما الآخر، ماذا جرى؟ لم يعد الفتى ينظر إلى الكون إلا من

خلال محبوبته، ولم تعد الفتاة تنظر إلى الكون إلا من خلال محبوبهـا، كما قال أحد كتاب اليونان القدماء:

"قبل أن يقابل الشاب الفتاة التي سيخطبها، وقبل أن يحبها يكـون محاطًا برجال ونساء، ولكن من اللحظة التي يكتشف فيهـا محبوبتـه، تصير هي كل شيء، والآخرون عاديين بالنسبة له".

كذلك أيضًا في تجربة الجمال، حينما تطرب آذاننا قطعة موسيقية، أو تبهر أعيننا تحفة من البلاستيك، فأنهما بحسب المنطق المجرد، مجرد تموجات صوتية، أو مادة البلاستك مشكلة، حتـى أنـك لا تسـتطيع أن تصف لأحد كنهها لكي يعجب بها، أنك فقط تـدعوه بكلمـات المسـيح لتلاميذ يوحنا "تعالوا وانظروا" فهناك مفهوم جمالي أعمق من المظهـر الخارجي.

ففي تجربة الحب والجمال نرى هناك أمورًا حولنا ما كنا نـدري عظمتها إلا حينما سلط عليها كشاف من أعماقنا فأصـبحنا نراهـا فـي مجدها وعظمتها. وكأننا نراها لأول مرة، كنا عميان بالنسبة لها.

ينبغي أن تدوم فينا هذه الرؤيا للأمور، فنرى كل شيء في كشاف النور الإلهي، مدركين أن الله هو الذي أعطى هذه الرؤيا، وليس ما نرى هو مصدر البهاء، أن كنا نفكر أن الأشياء هي مصدر بهائها سـنتحول إلى عُباد أوثان حينما نحبها ونعبدها.

ولكن حتى وإن فقد الشيء الذي نراه بهاءه في نظرنا لأن نور الله قد احتجب عن بصائرنا، فعلينا أن نحتفظ بذكرى الرؤيا الأولى النقية.

حينما نفعل هذا نكون أكثر إنسانية واتساعًا ونقاءً. ومع محاور المسافة والزمن نضيف محورًا جديدًا هو الحب والجمال نرى فيه الكون بصورة تفوق المنطق، ونرى عمل الله العجيب.

الملكوت الحقيقي، والملكوت الخيالي...

في اللحظة التي فيها نكتشف أننا عميان، وأننا خارج الملكوت، نبدأ ننشغل جديًا بعودة بصيرتنا، وبالدخول إلى ذلك الملكوت، يكون انشغالنا آنذاك حقيقيًا وليس خياليًا... لأننا كثيرًا ما نكون في الدهليز الخارجي ونتصور أنفسنا في مسكننا الأبدي، وكبطرس نحاول أن ندفئ أيدينا على النار المحترقة في الجهة الأخرى من البوابة. محاولين هنا والآن أن نشارك في حياة بعيدة عن متناول أيدينا، متخيلين أن الومضة الصغيرة المشتعلة فينا هي كل الملكوت.

لا، ليست هي الملكوت، أن الملكوت عهد وميثاق جاد لحياة أبدية، أنه وعد، وعودة سكنى الله فينا. أن الكتاب المقدس يحدد موقفنا، وموقعنا الآن... فموقفنا هو استمرار الأمل والرجاء فينا، وموقعنا هو قدام الباب الذي لم يزل مغلقًا أمامنا، ولا نكل من القرع عليه إلى أن ينفتح. علينا أن نثابر إزاء السير غير المدرك، ندعو، ونصرخ إلى الله، متلمسين الطريق، حتى يظهر لنا كطريق مستقيم نحو السماء، متيقنين أن اللحظة

ستأتي، فيها يستجيب الله لصلاتنا. (وقد قصدت أن استعمل كلمة "يستجيب" وليس كلمة "يسمع" لأن الله دائمًا يسمع لنا مع أنه لا يعطي دائمًا إجابة حسية، ليس الله بأصم من جهة صلاتنا). ولكننا لا نستطيع دائمًا أن نفهم صمت الله كإجابة لصراخنا.

فرحة الرجاء...

حينما ندرك أننا خارج باب مقفل، نستطيع أن ندرك مدى عزلتنا البشرية، ومدى بعدنا عن الملء الذي يهبه الله لنا، وعن البهجة التي إليها دعينا.

وفي نفس الوقت، نقدر أيضًا – وهذا مهم جدًا – مدى غنانا رغم فقرنا المدقع.

أمام الباب نعرف مدى ضآلة معرفتنا للأمور الإلهية، وفي نفس الوقت مدى الغنى الذي لنا في ومضة الحضرة الإلهية. إنها معرفة الشركة المنيرة، في قلب الظلمة التي هي نحن! أن كانت الظلمة غنية بالنور لهذه الدرجة، وأن كان الغياب غنى بالحضور إلى هذه الدرجة، وأن كانت الحياة، التي هي مجرد فجر، مليئة بكل هذا الرجاء والفرح... فأننا نستطيع أن نقف أمام هذا الباب المغلق ونتغذى على الفكرة المفرحة، أنه سيفتح في يوم ما، وسنعرف نهاية الحياة التي لا نستطيع أن نمتلكها في داخلنا الآن.

لا دعي أن نبحث عن وجود الله بطريقة حسية باستمرار.

أن الأناجيل تقدم لنا مجموعة من الأمثال، ترينا مدى بعدنا عن فهم القداسة، وعدم إدراكنا لعظمة الله. أننا قلما نعجب بالله، وكثيرًا ما نطلب أن يثبت لنا وجوده حسيًا، بدلاً من أن نسأله أن يغيرنا ويحولنا لكي نستطيع أن نجد أنفسنا في حضرته الإلهية.

رهبة الالتقاء بالله...

كل مواجهة مع الله سواء كانت قصيرة أم طويلة، لها رهبة الدينونة الأخيرة. حينما نجد أنفسنا وجهًا لوجه مع الله الحي، ومرهوب هو الوقوع في يدي الله الحي. أن التقابل مع الله هو دائمًا "أزمة" وفي اللغة اليونانية كلمة "أزمة" تعني دينونة.

نستطيع أن نوقف أنفسنا أمام الله. ولكن إما أن ندان أو ننجو، بحسب ما صنعناه في قلوبنا وفي خبرتنا أثناء حياتنا لذلك قال أحد أنبياء العهد القديم[1]: "ويحي أني سأموت لأني رأيت الله". أن الالتقاء بالله، أكبر مما تحتمله النفس الإنسانية، ما لم تكن هذه النفس صورة طبق الأصل لحياة المسيح.

أنه نوع من التهور، حين نطلب مواجهة مع الله ونحن غير ناضجين لهذه المواجهة.

---

[1] ويمكن أن نجد أمثلة كثيرة تقول بنغمة الرثاء: فمثلاً منوح عندما رأى الملاك يصعد في لهيب ذبيحته قال لزوجته: نموت موتًا لأننا قد رأينا الله. (قض ١٣: ٢٢).

لذلك فإن تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية عن حياة الصلاة تقول: "يجب أن لا نبحث عن خبرة تصوفية عالية، بل نسأل الله بروح العبادة، وبروح اليقظة والإيمان، بالرجاء الذي نحمله، وبالرغبة التي نملكها كي يعيرنا، ويعمل منا أشخاصًا قادرين أن نقابله أن لم يكن الآن، ففي يوما ما".

هذا التعليم نجده متجذرًا في الكتاب المقدس: تذكرون حادثة صيد السمك الكثير. لقد أخذ بطرس الرب يسوع في قاربه، كان المسيح يكلم الجموع في وجود بطرس، ولكن بطرس لم يدرك جلاله. فيقول الله لتلاميذه، القوا شباككم في عمق البحر، فيجيبه بطرس، يا معلم قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئًا ولكن على كلمتك ألقي الشباك. فيلقي شبكته ولا يقدر أن يجذبها من كثرة السمك، ويطلب إلى رفقائه في القوارب الأخرى أن يعاونوه، وهنا فقط يدرك أن المسيح هو ابن الله الحي، وأنه في الحضرة الإلهية، في حضرة شخص أعظم من أن يفهمه. فيؤخذ بهيبته، ويقع عند قدمي يسوع ويصرخ: "أخرج من سفينتي يا رب أني رجل خاطئ".

في هذا الوقت تصبح لديه البصيرة لجلال الله، الذي كان معه، وقد علم من هو، ولكنه يتوسل إليه أن يخرج. هل كثيرًا ما يحدث هذا معنا، حين نتعمق في الصلاة وينتابنا الشعور بحضرة الله، والإحساس بطهارته، وسموه فنقول: "أرحل عني يا رب، فأنا لا استحق اقترابك مني".

أم أننا مرات كثيرة نقحم أنفسنا عليه، محاولين أن نفتح الباب الذي أراد الله أن يتركه مغلقًا؟

أذكر أيضًا قائد المئة الذي طلب من الرب يسوع أن يشفي خادمه، فقال له الله: "سآتي واشفيه" فأجاب قائد المئة وقال: يا سيد لست مستحقًا أن تدخل تحت سقفي. ولكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامي. لأني أنا أيضًا إنسان تحت سلطان، لي جند تحت يدي أقول لهذا اذهب فيذهب ولآخر أأتي فيأتي. ولعبدي أفعل هذا فيفعل".

أهذا هو شعورنا؟ أنملك هذا الشعور تجاه الله حتى أننا لا نريد أن نجبره أن يأتي؟ تكفي كلمة منه، لا نريد أكثر. هل تؤيد حريته المطلقة، ونعبد عظمته؟ هل نتيقن داخليًا أن كلمته هي حياة لمن تقال له؟ أن تحققنا أنه بسبب عمانا، نحن خارج الملكوت، فبدون وجودنا في الملكوت يمكننا إذن أن نقرع الباب، ونبحث عن الطريق ونصرخ إلى الله. دون أن نقول له: "افتح على الفور، ليس لدي صبر لانتظر، أظهر أمامي الآن، لقد انتظرتك طويلاً" ولكن نحن دائمًا نقول مثل هذه العبارات غير اللائقة.

مشكلة غياب الحضرة الإلهية في الصلاة...

من الأربع والعشرين ساعة، ربما نكرس نصف ساعة لله، ونعجب، لماذا لم نشعر بالحضرة الإلهية من اللحظة التي بدأنا فيها "باسم الآب والابن والروح القدس" لماذا لم تظهر أمامنا عظمة الثالوث.

في غاية الأهمية أن ندرك كم نحن في غاية البعد، وفي نفس الوقت نشعر بمدى الغنى الموهوب لنا في حضرته من النور الداخلي الذي في وسط ظلمتنا، ربما تكون كل طاقاتنا هي إلهام، وطريق ورجاء. في ذلك الوقت لا تهمنا السرعة مع الله ومع العالم الذي حولنا، هو

وضعنا الحقيقي الذي فيه يستطيع أن يعمل، أن الله لا يقدر أن يعمل في وضع وهمي ذلك الوضع الذي تعودنا أن نضع أنفسنا فيه باستمرار، فنتغذى على الخيال والوهم والتصور ونصاب "بالنهم الروحي" كما يعبر آباء البرية.

من هذا المنطلق تحل المشكلة العويصة التي تعذبنا في حياة الصلاة هي مشكلة: كيف نصلي ولدينا أحساس بغياب الله؟ وبدلاً من أن تصبح مشكلة، تتحول إلى طاقة خلاقة وعمل إيجابي، وبدلاً من أن نصلي بقلب مهزوز، ونرثي أنفسنا على هذا الغياب، نستفيد منه فيصبح وضعًا واقعيًا وأقول "أنني أعمى، أنني أقف خارج البوابة، أنني في البرد والظلمة، ليس لأني في الظلمة الخارجية مرفوضًا بحسب حكم الله، ولكن حالتي تشابه حالة بدء الخليقة: خربة وخيالة ومظلمة، وابتدأ الله أن يدعو كل الموجودات، وقال أن يشرق نور من ظلمة، هو الذي سيحول ظلمتي إلى نور".

أن نصلي في غياب الله – كما كان بارتيماوس يصرخ إلى يسوع دون أن يراه – هو أن نعلم أنه موجود وأنني أعمى، أنه موجود وأنا لا أشعر به، وأنه من حنانه أن يغيب عني حين لا استطيع أن احتمل مجيئه بعد.

فلو أننا تفطنا جيدًا في قاع ضياعنا المظلم، الذي هو قلبنا، وضمائرنا، وماضينا، حاضرنا، بواعثنا نحو المستقبل، هل نستطيع أن نقول أننا مستعدون لمواجهة الله؟

أنجرؤ ونطمع في مقابلة واحدة؟، نعم ولكن في الوقت الذي يريده الله. وتكون المقابلة هبة منه.

أما أن كنا نطلبها، وندفع الله لمقابلة كهذه، فلا، أنها مقابلة أكبر مما نستطيع أن نحتمل.

رغم هذا، فأننا نسلك باستمرار متعامين بالظاهر، وغير مبصرين بهاء وعظمة غير المرئي. مفتقرين إلى الإحساس بالخشوع والهيبة أمام نظرة الإيمان المعطاة للمتواضعين ولا نقول في أنفسنا: أننا لو لمسنا حتى ولو هدب ثوب المسيح فقط، نشكر الله على غيابه كي يعلمنا أن نقرع بابه، ونختبر قلوبنا وأفكارنا، ونعرف قيمة ما تجلبه علينا أعمالنا، ونقدر الله باعث وجودنا، ونسأل أنفسنا أن كانت إرادتنا متجهة نحو الله أم لا؟ أننظر إلى الله في فسحة الوقت الضيق بين مشاغلنا. لننساه في الوقت التالي. وفي بعدنا عنه نبدد نشاطنا وقوتنا التي أخذناها منه، ونبذرها بعيش مسرف كالابن الضال؟

إن هذه الأمور في غاية الأهمية في رحلتنا نحو الله كنقطة بدء. لأننا أن لم نبدأ من الحقيقية الواقعة لأنفسنا، ونتقبلها تمامًا كهبة من الله، سنضيع وقتًا نحاول منه أن ندفع الباب لنفتحه بالقوة، في حين أنه سينفتح من تلقاء نفسه في وقت ما.

يقول القديس يوحنا ذهبي الفم:

"حاول أن تكتشف مفتاح قلبك فستجد أن هذا المفتاح نفسه هو الذي يفتح لك باب الملكوت كذلك".

مثل الابن الضال

وقال إنسان كان له ابنان، فقال أصغرهما لأبيه يا أبي أعطيني القسم الذي يصيبني من المال. فقسم له معيشته. وبعد أيام ليست بكثيرة جمع الابن الأصغر كل شيء وسافر إلى كورة بعيدة، وهناك بذر ماله بعيش مسرف. فلما أنفق كل شيء حدث جوع شديد في تلك الكورة فابتدأ يحتاج وانضم إلى واحد من أهل تلك الكورة فأرسله إلى حقوله ليرعى خنازير. وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله فما يعطيه أحد. فرجع إلى نفسه وقال كم من أجير لأبي يفضل عنه الخبز وأنا أهلك جوعًا. أقوم وأذهب إلى أبي وأقول له يا أبي أخطأت إلى السماء وقدامك، ولست مستحقًا بعد أن أدعى لك ابنًا، أجعلني كأحد أجراك. فقام وجاء إلى أبيه. وإذ كان لم يزل بعيدًا رآه أبوه فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبله. فقال له الابن يا أبي، أخطأت إلى السماء وقدامك ولست مستحقًا بعد أن أدعى لك ابنًا. فقال الأب لعبيده. أخرجوا الحلة الأولى والبسوه واجعلوا خاتمًا في يده وحذاء في رجليه. وقدموا العجل المسمن واذبحوه فنأكل ونفرح. لأن ابني هذا كان ميتًا فعاش وكان ضالاً فوجد. فابتدأوا يفرحون. وكان ابنه الأكبر في الحقل. فلما جاء وقرب من البيت سمع صوت آلات طرب ورقصًا. فدعا واحد من الغلمان وسأله ما عسى أن يكون هذا. فقال له. أخوك جاء فذبح أبوك العجل المسمن لأنه قبله سالمًا. فغضب ولم يرد أن يدخل فخرج أبوه يطلب إليه.

فأجاب وقال لأبيه ها أنا أخدمك سنين هذا عددها، وقط لم أتجاوز وصيتك وجديًا لم تعطني لأفرح مع أصدقائي. ولكن لما جاء ابنك هذا الذي أكل معيشتك مع الزواني ذبحت له العجل المسمن. فقال له يا بني، أنت معي في كل حين وكل ما لي فهو لك. ولكن كان ينبغي أن نفرح ونسر لأن أخاك هذا كان ميتًا فعاش وكان ضالاً فوجد" (لو ١٥: ١١-٣٢).

هذا المثل الغني بالمعاني الروحية، يقع في جوهر روحانية المسيحية، وحياتنا في المسيح، إنه يتابع الإنسان في اللحظة التي يضل فيها عن الله، ويتركه ليتبع طريقه الخاص في هذه الأرض المهجورة، ظانًا أنه سيجد فيها الكمال، وحياة أفضل.

خطيئة إلغاء الله من الحياة....

أن حوادث هذا المثل تبدأ بطيئة الوقع في البداية، ولكنها منتصرة في النهاية حين يعود الابن بقلب منكسر مفعم بالمرارة، ومستسلم، يعود إلى أبيه. النقطة الأولى في هذا المثل، أنه ليس قصة خطيئة واحدة عابرة بل هي قصة الخطيئة في أعمق أبعادها، وبكل قوتها الهدامة. كان لرجل ابنان، فطلب الأصغر من أبيه حصته من الميراث. لقد تعودنا على صيغة التقرير المدون في الكتاب المقدس الذي يصور به المشهد، حتى أننا نقرأه دون أن نضطرب – أنه مجرد بداية قصة بالنسبة لنا. إلا أننا أن تأملنا قليلاً، سنرى ما تعنيه هذه الكلمات بالضبط، سنفزع.

هذه العبارة البسيطة: "أبي... أعطيني..." أنها تعني أبي أعطني (دلوقت) ما سيكون ملكي حينما تموت أريد أن أعيش حياتي، وأنت

واقف عقبة في الطريق، لا أستطيع أن أنتظرك حتى تمـوت، سـأغدو عجوزًا آنذاك ولا أقدر أن أتمتع بما يجلبه الغنى والحرية: لذلك مت. لا وجود لك بالنسبة لي، أنني راشد ولا حاجة لي إلى أب كل ما أريده هو الحرية. وكل ثمار حياتك وجهادك. مت ودعني أذهب!!

ليست هذه هي خلاصة الخطيئة؟

لم يحسن أن يعامل الله نفس معاملة الابن الأصغر لأبيه كما جاء في الخبر.

طلب منه صحة وقسوة. كل ما يستطيع أن يعطيه لنا: صحة، قوة جسمية، ذكاء، دقة حس، يسر. كل ما نستطيع أن نكونه، وكل ما نستطيع أن نأخذه منه ونبدده تاركين إياه منسيًا منبوذًا؟

أما نفعل هذا الأجرام الروحي بين الحين والآخر ضد الله، وضد أخوتنا البشر – الأصدقاء، الأقرباء، الزملاء، الأبناء، الأزواج، الزوجات، الوالدين؟

أما نتصرف كما لو كان الله والناس موجودين فقط لكي يشقوا ويعطونا ثمر حياتهم، بل يعطونا حياتهم نفسها، وبعد ذلك لا أهمية لهم بالنسبة لنا؟ الناس، والله نفسه لا ننظر إليهم كأشخاص، بل ظروف وأشياء، وبعدما نأخذ كل ما يمكن أن يعطوه لنا، ندير لهم ظهورنا ونجد أنفسنا بعيدين عن هؤلاء ولا ينبغي أن نرى وجوههم.

ونظن أننا لكي تتدعم ملكيتنا لما أخذناه. علينا أن نلغي من الوجود من أعطانا هذه الأشياء. وبذلك نبعد أنفسنا عن سر المحبة. لأننا نصبح غير قادرين على العطاء، ولا نستطيع أن نأخذ أكثر، هذا هو أساس الخطيئة.

حين تقفر قلوبنا من المحبة، فنطلب من الشخص الكبير الذي يعطينا أن يخرج من حياتنا، ويقبل الموت والفناء.

إن هذه الفلسفة العقلية، هي جريمة ضد الحب، وهي من عمل الخطيئة، إنها خطيئة إبليس، وآدم، وقايين... الخ.

شقاء الإنسان الذي يلغي الله...

حينما ملك الفتى كل الغنى الذي منحه إياه "موت" أبيه! ودون أن ينظر للخلف كما يفعل الشاب الطائش، يترك الشاب أمان بيته الذي يخنقه، ويركض بسرعة نحو الأرض التي يتصرف فيها بحرية دون أن يعيقه عائق: حرًا من القيود، ومن كل الروابط الأخلاقية، يستطيع الآن بكل إخلاص أن يسلم نفسه لكل نزوات قلبه، لا وجود للماضي، الحاضر فقط هو الموجود، ويمتد أمامه المستقبل بلا حدود إنه محاط بأصدقاء، وهو مركز كل شيء، تبهره أطماع الحياة، ولا شك أنها لن تفي بوعدها. يتخيل أن أصدقاءه الجدد متعلقين به، والحقيقية أنه عُومل منهم كما عامل هو والده. أنهم أصدقاؤه لمجرد غناه فقط، وللمدى الذي يستطيعون فيه أن يشاركوه في مفاتن حياته المسرفة، يأكلون، يشربون يفرحون، أنه

ملئ بالبهجة، ولكن كم تختلف هذه البهجة عن نعيم ملكوت الله الهادئ العميق الذي ظهر في عرس قانا الجليل.

ثم جاء الوقت الذي خانه فيه غناه، وعندما تلاشى كل شيء ولم يتبقى شيء لأصدقائه إلا ذاته، أنطبق عليه القانون الروحي العام: "بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم" (مت ٧: ٥).

[illegible] لأن شخصه ليس له منفعة بالنسبة لهم وكان [illegible] لا وجود له بالنسبة لهم، لقد أصبح وحيدًا ومعدمًا صح جوعًا وعطشًا وعريانًا وتعسًا ومنبوذًا، متروكًا وحده – كما ترك هو الله وحده – نحو جهة تعاسة أعظم وهي فراغه الداخلي.

أن أباه رغم كونه وحيدًا، كان غنيًا بمحبة فائضة، تلك التي جعلته يضع نفسه عن ابنه، ويقبل الاهانة بأن يتصرف ابنه بحرية.

بحث الابن عن عمل، وكان عمله تعاسة ومهانة أعظم: لا أحد يعطيه طعام، ولا يعلم كيف يجد الطعام، يا للاهانة أيرعى خنازير (وكانت في الديانة اليهودية تعتبر رمزًا للنجاسة وغير طاهرة كالأرواح النجسة التي أخرجها المسيح). هكذا كان عمله الخارجي رعاية الخنازير غير الطاهرة نموذجًا لحالته الداخلية النجسة غير الطاهرة.

وهكذا وصل إلى الحضيض، وفي حالة يرثى لها من التعاسة العميقة والشقاء.

ذكريات المحبة الأبوية...

نحن أيضًا، كثيرًا ما نندب تعاستنا أكثر مما نشكر على الأمور المبهجة في حياتنا، ليس لأن تجاربنا ثقيلة، ولكن لأننا نواجهها بجبن وبلا صبر.

لقد تُرك الابن الضال من كل أصدقائه، ورُفض من كل جهة فلم يجد مفرًا من أن يواجه نفسه بنفسه، ولأول مرة ينظر إلى داخله متحررًا من كل أغراء أو غواية، ومن كل الكذب والمكابرة، الأمور التي كان يعتبرها أنها حريته...

تذكر طفولته، الوقت الذي كان له أب، الوقت الذي لم يكن فيه يتيمًا، ولم يكن متشردًا دون عائل أو بيت، فأدرك حينئذ أن الجريمة الأدبية التي أرتكبها لم تقتل أباه، بل قتلته هو. وقرر أن يعود ويعطي حياته إلى أبيه بحب كامل، وبأمل فنهض، تاركًا وراءه وجوده المزعزع ومنطلقًا إلى بيت أبيه. ومستعدًا أن يلقي بنفسه عند قدمي حنانه. أنها ليست ذكريات بيته: نار المدفأة، والمائدة المليئة بالطعام بل محبة أبيه، حتى أنه لم يبدأ اعترافه بكلمة "أغفر"، بل "أبي".

أنها محبة أبيه التي كانت تُمنح له بدون مقابل، وكل جود الحياة يتدفق منها. قال ربنا يسوع: أطلبوا أولاً ملكوت الله **وبره** وهذه كلها تزاد لكم "أنه عائد، ليس لشخص غريب لا يعرفه ويقدم له ذاته" ألا تتذكرني؟ لقد كان لك ابن أنكرك وتركك... إنه أنا، كلا أنه اسم "أبي" النابعة من

الأعماق هي التي كانت تدفعه دفعًا إلى الأمام وتُعجل خطاه. وهي التي أعطته الأمل.

هذه هي الطبيعة الحقيقية للتوبة، فالتوبة الحقيقية تمزج معًا: رؤية الشخص لخطاياه، مع الأمل في القلب الأبوي الكبير الذي لله الذي يصل إلى درجة اليقين.

حينما تكون رؤيتنا لخطايانا بلا رجاء، تظل توبتنا غير كاملة، وتحت ستار الصبر، ربما تقود إلى التعاسة. أن يهوذا قد فهم ما عمله، رأى أن لا علاج لإنكاره. لقد حوكم المسيح، ومات، لكن يهوذا لم يتذكر حنان الله، لم يفهم أن الله لن يخونه كما خان هو الله، فقد كل رجاء، فخرج خارجًا، وخنق نفسه، كان فكره مع خطيئته، مع نفسه وليس مع إلهه الآب السماوي ليسوع وأبيه هو أيضًا.

سر المغفرة...

رجع الابن الضال، لأن ذكريات محبة أبيه أعطته الشجاعة. وتدفق اعترافه، اعترافًا رجوليًا كاملاً "أبي، أخطأت إلى السماء وقدامك، ولست مستحقًا بعد أن أدعى لك ابنًا: اجعلني كأحد أجراك".

لقد وقف متهمًا أمام ضميره، لا يستطيع أن يسامح نفسه لكي يحصل على المغفرة...

أن الاتضاع هو سر المغفرة.

يجب أن نتعلم هذا من حين لآخر. يجب أن نتعلم أن نقبل المغفرة ليس عن استحقاق فينا، بل عن طريق عمل الإيمان في محبة الآخرين، نؤمن بيقين في انتصار المحبة والحياة، ونقبل بتواضع عطية المغفرة المجانية حينما تمنح لنا. الابن الضال استطاع بالاتضاع أن يفتح قلب أبيه وأن يجعله مستعدًا للغفران، فبينما كان يقترب من البيت رآه أبوه، فتحنن عليه وركض ووقع على عنقه وقبله.

كم مرة وقف هذا الآب الطيب على عتبة الباب ينظر إلى الطريق الذي رحل منه ابنه آملاً ومنتظرًا...

وأخيرًا جاءه اليوم الذي تحقق فيه أمله، ليرى أبنه الذي رحل في حُلة مزخرفة بالجواهر وفي حالة من العز والغنى، رحل دون أن يلتفت ليلقي نظرة على بيت الطفولة، لأن عقله كان مليئًا بالأوهام التي تدغدغ خياله.

أما الآن، فالأب يراه عائدًا في هذه المرة، كفقير مسكين في خرق بالية، وفي كآبة مطبقة، يحمل ماضيه المخجل، وبلا مستقبل، ترى كيف سيقابله أبوه؟

"أبي... أخطأت..." ولم يتركه أبوه يكمل تنازله عن بنويته، كما لو كان يقول له: "إن في رجوعك إلى البيت، قد أعدت لي حياتي، حينما عاملتني كميت، أمت أنت نفسك، ولكن عندما عرفت أنني حي رجعت الحياة لك أيضًا".

الحلة الأولى، الخاتم، الحذاء، العجل المسمن...

والتفت الأب إلى عبيده وقال لهم: "اخرجوا الحلة الأولى والبسوه، واجعلوا خاتمًا في يديه، وحذاء في رجليه".

في ترجمات كثيرة نقرأها "أحسن حلة" ولكن النص اليوناني الأصلي يعني "الحلة الأولى".

طبعًا ربما تكون الحلة الأولى هي أحسن حلة في البيت، ولكن أليس، من المرجح أكثر أن يكون الأب قد قال لعبيده "أذهبوا واحضروا الحلة الأولى التي خلعها ابني يوم سفره، الحلة التي ألقى بها، كي يلبس رداء الخيانة؟

لو أنهم أحضروا أحسن حلة في البيت، لأحس الابن المسكين بالارتباك في نفسه، وشعر أنه ليس في بيته، ولكنه مجرد ضيف، استقبل بكل حفاوة واحترام. لا يلبس الشخص أجود حلة حين يستريح في البيت، والنص يحتمل أكثر، أن نفكر أن الأب قد طلب الحلة التي كان الابن قد رفضها، ولكن الأب التقطها، وطواها بعناية واحتفظ بها، كما احتفظ يعقوب بقميص ابنه يوسف الملون الذي أحضره له أخوته ملطخًا بالدماء كأثر باق من ابنه الذي قيل أن وحشًا قد افترسه.

لذلك، خلع الابن الاسمال البالية، ولبس رداءه المألوف مرة أخرى، أنه قديم بعض الشيء، ولكنه على مقاسه، أنه يلبسه في المنزل وينظر حواليه: أن السنين التي قضاها بعيدًا عن بيت أبيه، في الزنا

والخيانة وعدم الاخلاص تظهر ككابوس – كأنه شيء لم يحصل. هو هنا، وكان دائمًا هنا، يلبس نفس اللباس الذي كان يلبسه دائمًا. أبوه هنا، أكبر سنًا مما قبل مع بعض التجاعيد. العبيد هنا يحترمونه، وينظرون إليه بفرح وسعادة، لقد رجع إلينا، وكنا نظن أنه رحل إلى الأبد، لقد رجع إلى الحياة، وكنا نخشي أن يعامله أبوه بصرامة مميتة، وبدلاً من أن يقتل روحه الأبدية، أعادة للحياة.

أنها التوبة، التي انتزعت الهوة التي كانت تفصله عن أبيه، وبيت أبيه... لقد فعل الأب أكثر من هذا بأن أعطاه خاتمه، الذي لم يكن خاتمًا عاديًا.

تعلمون أنه قديمًا لم تكن الكتابة معروفة لكل الناس، كان الخاتم ذو الختم هو وسيلة الإمضاء على أي مستند، فكونك تعطي خاتمك لشخص ما، يعني أن الشخص يضع حياته، وأملاكه، وأسرته، وشرفه وكل شيء، في يده.

أذكروا دانيال وهو في بابل ويوسف وهو في مصر. حينما أعطاهم الملك خاتمه، منحهم السلطة أن يحكموا باسمه، هكذا تبادل الدبل بين الخطيبين يعني، أن كلا منهما يثق في الآخر، ويضع نفسه بكاملها تحت تصرف الآخر، كل شيء املكه، كل نفسي بلا استثناء، ولا أبقى لنفسي شيئًا.

عندما يقول شخص: وطني، خطيبتي، كنيستي فهذا لا يعني أنه يمتلكهم، بل يعني أنني ملك لهم دون أي تحفظ،

أن إعطاء الابن لخاتم، صورة أخرى لهبة الذات، الابن الذي طلب نصف أملاك أبيه، الذي أراد أن يستولى على ما كان سيأخذه بعد موت أبيه – يضع الأب الآن ثقته فيه. لماذا؟

لأنه رجع للبيت، لم يحاسبه عما فعله حينما كان بعيدًا. لم يقل له، عندما تخبرني عن القصة بأكملها سأفكر أن كنت أثق فيك أم لا.

لم يقل – كما نفعل نحن كثيرًا سواء بطريق مباشر أو غير مباشر حينما يعود إلينا أحد الأشخاص الذي تشاجرنا معهم–، حسنًا، سأقبلك تحت تجربة سنكتفح لنرمم صداقتنا، وإذا وجدتك غير مخلص سيرجع مصيبك كله مرة أخرى. وأطرحك خارجًا عن حياتي لأجل ماضيك الذي يشهد عليك والذي يبرهن على إدانتك، ستكون دائمًا خائنًا في نظري.

أن الأب لم يفكر على هذا النحو، بل أتصور أنه قال "إن رجوعك سيزيل فترة غيابك القاسية تمامًا، أنظر الرداء الذي ترتديه! أنه برهان على انه كأن شيئًا لم يحدث، أنت نفس الشخص اليوم كما كنت قبل رحيلك، وهذا الخاتم الذي أعطيه لك يبرهن أنني لا أشك فيك كل شيء ملك لك لأنك أبني".

ويضع حذاء في قدميه "حاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام" كما يكتب معلمنا بولس الرسول في رسالته إلى أهل أفسس.

ويذبح العجل المسمن للوليمة، التي هي وليمة القيامة، أنها أصلاً وليمة الحياة الأبدية، وليمة الحمل، وليمة الملكوت، الابن الذي كان ميتًا،

هو حي، والذي كان ضالاً في أرض غريبة، في قفر خال – كما نقرأ بداية سفر التكوين، رجع إلى البيت.

هذا الابن في الملكوت الآن، لأن هذا الملكوت هو ملكوت المحبة، محبة الآب الذي أحبه، الآب المنقذ والمكمل، ومصلح الحياة.

الابن الأكبر...

الابن الآخر يظهر في الصورة، لقد كان دائمًا يعمل في بيت أبيه بكل أمانة، ويسلك حياة بلا لوم لكنه لم يدرك أبدًا أن أهم شيء في علاقة الأب بالابن هو القلب وليس العمل، أنها المحبة وليست الفروض. كان مخلصًا في كل شيء، ولكن كما لو لم يكن له أب، وهو لم يكن أبنًا إلا في الظاهر، ولا حتى كان له أخ، أسمع ما يقوله لأبيه لما سمع صوت آلات طرب ورقص دعى أحد الغلمان، وسأله ما عسى أن يكون هذا، وأجابه الغلام: "أخوك جاء، فذبح أبوك العجل المسمن لأنه قبله سالمًا". وغضب الابن الأكبر ولم يرد أن يدخل فخرج أبوه يطلب إليه لكنه أجاب: ها أنا أخدمك سنين هذا عددها (وكلمه يخدم في اللغة اليونانية واللاتينية كلمة قوية تشير إلى الرق والعبودية، فكان العبد يقوم بكل الأعمال المختلفة) وقط لم أتجاوز وصيتك (إنه لا يفكر إلا بمنطق الأوامر والتعديات، لم يتأمل يومًا في القصد من وراء الكلمات، كان القلب كالحجر، لم يستمتع بنغم الصوت، ولم يشعر بدفء الحياة المشتركة بينه وبين أبيه كان الأمر بالنسبة له أوامر وواجبات لم يكسرها

على الاطلاق) ويستمر قائلاً: "وجديًا لم تعطني قط لأفرح مع أصدقائي، ولكن لما جاء أبنك هذا الذي أكل معيشتك مع الزواني، ذبحت له العجل المسمن" لاحظ أنه يقول "أبنك" وليس "أخي" أنه لا يريد أن يكون لـــه أي علاقة بأخيه. أعرف أسرة هكذا، أب وأم وابنة كانت محبوبة عند أبيها، وأبن كان مصدر حزن لأبيه فكان الأب يقول للأم دائمًا "ابنتي"، و"أبنك".

لقد هاجم الابن الأكبر أباه بعنف، أبنك هذا ليس أخي، لم يكن يتجاوز وصية أبيه مثلي، فلماذا ذبحت له العجل المسمن؟ كيف يجيب الأب؟

"يا أبني أنت معي في كل حين" فالأب يعتبره كابن، هو بالنسبة له أبنه، وهما دائمًا معًا. أما بالنسبة للابن، فلا. كان الابن مع أبيـــه دائمًـــا جنبًا على جنب ولكن لم تكن لهما حياة مشتركة بلا انفصال. كانـــا فـــي نفس البيت، ولكن ليس هناك اتحاد أو عمق.

"وكل ما لي فهو لك" هذه الكلمات هي التي استعملها السيد المسيح في صلاته للآب قبل موته.

ثم يستمر الأب فيقول: "ولكن كان ينبغي أن نفـــرح ونســـر، لأن أخاك هذا كان ميتًا فعاش وكان ضالاً فوجد".

عودتنا إلى الآب...

رحلتنا إذن هي من عمق الخطيئة، إلى بيت الآب وها هو الطريق المائل أمامنا، أن كنا جادين في أن نعيش بحسب صوت الله، الذي يدوي في ضمائرنا، وليس بحسب الآراء الشائعة وسط الناس، أن كنا جـــادين

في أن نعيش بحسب الحق المعلن في الكتاب المقدس، والممثل في شخص المسيح الذي هو الطريق والحق والحياة حينما نستقر على أن نجعل الله وضمائرنا الحكم الوحيد والمطلق فينا، ستنهار من أمام أعيننا كل مقاييس العالم، ونستطيع أن نرى ونعرف ما هي الخطيئة، ونعود إلى ذواتنا، ونواجه أنفسنا وجهًا لوجه، وننال ملء البركات التي نالها الابن الأصغر والتي كانت له وقت أن كان يعيش في طفولة في بيت أبيه. وندرك بشاعة فعل الخطيئة التي تتنكر لوجود الله، والأشخاص، إذ ترينا إياهم أنهم أشياء نستغلها بما يعود على ذواتنا بالنفع ونطرحهم عنا حين لا نجني من ورائهم نفعًا.

هل تذكرون الآية الأخيرة في إنجيل متى، حينما قال السيد المسيح لتلاميذه أن يرجعوا إلى الجليل؟ لقد عاشوا منذ وقت قصير أسبوع الآلام في أورشليم أسوأ أيام حياتهم وأصعبها. رأوا فيه إلههم وهو محاط بالكراهية، وهم في ضعفهم أنكروه.

لقد استسلم التلاميذ للنوم في بستان الزيتون، وهربوا حينما ظهر يهوذا. اثنان منهم تبعا ربهما وإلههما إلى بيت قيافا، وجلس أحدهما مع الخدم وهو بطرس الذي كان قد قال وقت العشاء، أنه حتى أن شك فيه الجميع لا ينكره هو، هذا أنكره ثلاث مرات. لقد رأوا آلام المسيح، تبعوه وهو يموت، وها هم يرونه حيًا معهم مرة أخرى. كانت اليهودية بالنسبة لهم تعني التحطيم، والجدب ونهاية الحياة، وفقدان الرجاء.

ولكن الرب يسوع يرسلهم ليرجعوا إلى الجليل:

ارجعوا إلى هناك حيث عرفتموني لأول مرة، حيث عشنا معًا حياتنا اليومية في مودة أخوية، حيث لم يكن هناك ما يعكر الصفو، ولم تحدث معاناة، ولا إنكار.

عودوا للزمان الذي كان فيه كل شيء بريئًا بكل الإمكانيات المتاحة... رجعوا إلى الماضي، إلى عمق الماضي، ثم أذهبوا وعلموا كل الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم كل ما علمته لكم.

إن الرجوع للنفس، يقود إلى العمق الذي نكتشف فيه الحياة، نكتشف الوقت الذي كنا فيه أحياء في الرب مع أشخاص آخرين. من قلب هذه الواحة في برية الماضي المقفر، نستطيع أن نبدأ طريقنا، طريق الرجوع بكلمة "أبي" وليس "ديان" أو "حاكم" على شفاهنا وباعتراف رجولي عما ارتكبناه من خطايا، مع يقين لا ينقص شيئًا من مقامنا بل سيضمن لنا كرامة حياتنا. وهو لا يسمح لنا أن نصبح عبيدًا منذ الوقت الذي دعانا فيه بكلمته الخالقة وأيضًا دعوته الأخيرة لنا بأن نكون أبناء، وبناتًا لأبوته، نستطيع أن نذهب إليه بثقة، عالمين أنه كان ينتظرنا طول الوقت الذي نسيناه فيه. أنه هو الذي سيأتي لمقابلتنا حينما نكون مترددين في الاقتراب من البيت. أنه هو الذي سيضمنا بين ذراعيه، ويمحو تعاستنا التي لا نقدر أن نعرف مداها، لأننا لا نعلم متى سقطنا، ولا

عظمة الدعوة التي نهدف إليها، نستطيع أن نذهب إليه، عالمين أنه سيلبسنا حلتنا الأولى، يلبسنا حلة المجد التي فقدها آدم في الفردوس سيلبسنا المسيح، ويعيدنا إلى نقاوتنا الأولى أن المسيح هو الإنسان كما أراده الله. أنه هو الذي يجب أن نلبسه، مجد الروح الذي بسترنا حينما تعرينا الخطيئة.

ولنعلم أن الله، وقت أن نرجع إليه، سيُرجع ثقته فينا، ويعطينا خاتم الحرية الذي استخدمه آدم الأول من قبل لهدم الانسجام الكوني مرة، سيعيد إلينا خاتم الابن الوحيد الذي مات على الصليب حين أنكره الناس، وبموته غلب سلطان الموت، وقيامته وصعوده – التي هي توبتنا – تعيد الانسجام والألفة بيننا وبين الآب.

عودة إنسانيتنا...

حينما نعود لبيت الآب، ونجد أنفسنا في مواجهة دينونة ضمائرنا ودينونة الله. تلك الدينونة التي لا تكون مبنية على نظريات لاهوتية، ولا على ما نستطيع أن نأخذه من الله في حياة الشركة معه، بل هي دينونة مبنية على شيء واحد: "هل تتصرف كإنسان، أم أن تصرفاتك تخرجك عن دائرة البشر؟". ربما تذكر مثل الخراف والجداء (مت ٢٥: ٣١-٤٥) "يا رب متى رأيناك جائعًا أو عطشانًا، أو غريبًا، أو عريانًا، أو مريضًا أو محبوسًا؟". أن كنا لم نعرف أن نتصرف كبشر، لا يكون لدينا أي فكرة عن كيف نتصرف على المستوى اللاهوتي.

ولا يمكننا أن نعود لبيت الآب، ولا يتحتم علينا أن نلبس المسيح، ولا يضيء بهاء الروح على وجوهنا، بل لا نود أن نكمل دعوتنا، لنكون [illegible] حقيقيين للآب علينا أن نعمل بكل طاقتنا، ما نستطيع أن نفعله لنبقى [illegible] الرفق. الرحمة، الرأفة في وسعنا سواء كنا إبرارًا أم خطاة.

[illegible] نرجع إلى الآب، نستطيع أن نرجع بملء الثقة طالما [illegible] هو حتى محب. وهو الذي يبغي خلاصنا، لا يطلب منا إلا شيئًا واحدًا [illegible] الخمسة [illegible] عطي قلبك وهذه كلها تزاد لك.

هذا هو الطريق الذي يقودنا جميعًا من مكاننا، حين نكون عميانًا وخارج الملكوت. متشوقين أن نرى ذلك الملكوت مكتملاً في داخلنا، ومتخلياً عن الأشياء لنسلك في هذا الطريق خطوة خطوة إلى أن نجد أنفسنا أمام دينونة الله، ونرى مدى بساطة هذه الدينونة.

إلى أي حد ينبغي أن يكون رجاء قلوبنا، فبقدر هذا الرجاء نجد طريقنا نحو الله بثقة، عالمين أنه هو الديان، ولكن فوق كل شيء هو كفارة عن خطايانا أن الله هو الوحيد الذي يعز عليه الإنسان جدًا فكل حياته، وموته، وآلامه، وإخلائه، والأهوال التي قاساها الابن الوحيد هي مقياس الثمن الذي يربطه بخلاصنا.

ثالثًا

الهدف هو الله

القيامة والصلب

لأن اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة، ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوبًا. لليهود عثرة، ولليونانيين جهالة. وأما للمدعوين يهودا ويونانيين فبالمسيح قوة الله، وحكمة الله. لأن جهالة الله أحكم من الناس. وضعف الله أقوى من الناس" (١ كو ١: ٢٢-٢٥).

أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا هاوية؟

قام المسيح، وسقطت قوات الشر.

قام المسيح، وتهللت الملائكة.

قام المسيح، وابتهجت الحياة.

قام المسيح، وأنقذ الموتى من القبور.

لأن المسيح قد قام من الأموات، وصار باكورة الراقدين. لله المجد والسلطان إلى دهر الدهور آمين.

(القديس يوحنا ذهبي الفم)

القيامة كخبرة شخصية لكل مسيحي...

لا يجب أن يغيب عن ذهننا في أي لحظة من اللحظات، أن نهاية مطاف رحلتنا، هو الالتقاء بالمسيح القائم من الأموات.

قد يقرأ البعض شهادة الرسل لقيامة المسيح من الأموات ويتساءلون، كيف تكون هذه الخبرة الرسولية، لها نفس الأهمية بالنسبة لنا؟ وهل يكفينا ما يؤمن به الآخرين وأن نبني إيماننا على شيء غير محقق؟

في هذا نريد أن أشدد على حقيقة هامة وهي أن قيامة المسيح تسمو التاريخ في الماضي كما أنها، تنتمي إلى حقيقة حاضرة، فالصلب قد تم في يوم معين كحقيقة تاريخية، ولكن المسيح المقام من الأموات مرة، حي الآن وإلى الأبد، إنه يعيش أبديًا في مجد الآب أنه تاريخ كل يوم وكل لحظة، أنه يعيش معنا كما وعد "كل الأيام وإلى انقضاء الدهر" (مت ٢٨: ٢٠).

ان اختبار المسيحي مرتبط بحادثة القيامة. إنها الواقعة الوحيدة في الإنجيل التي يمكن أن تصبح جزءًا من تجربتنا الشخصية، أما باقي الخبرات فمن الممكن أن نستلمها من التقليد المكتوب أو المنقول، مثل وصف الصلب، والوقائع المختلفة التي ترويها لنا الكتب المقدسة. ولكن القيامة بالذات هذه نعرفها شخصيًا، وإلا فنحن نجهل الحقيقة الأساسية الهامة لحياة الكنيسة والإيمان المسيحي.

أن "سمعان اللاهوتي" يقول:

كيف يمكن للشخص الذي لا يعرف شيئًا عن القيامة في هذه الحياة، أن يتوقع اكتشافها، ويتمتع بها عن موته؟

إن اختبار القيامة والحياة الأبدية هو وحدة القادر أن يحول موت الجسد إلى رقاد، والموت نفسه يكون هو باب الحياة.

إن هذه الحقيقة لابد أن توقظ فيك أسئلة تحتاج أن تجيب عليها، إنك تسأل نفسك، ترى هل ذقت هذا الاختبار المسيحي؟

هنا مركز الاختبار الذي من دونه لا توجد مسيحية، والإيمان المسيحي يكون مجرد سلامة نية، ليس أيمانًا بأشياءً لا ترى، بل يكون مقدرة على تقبل شهادة الآخرين غير المحققة، شهادة ليس مبنية على شيء سوى أن شخصًا ما قال بأمر لا يصدق، ولكن لأسباب غير معروفه كذلك، مستعدين أن نقبل هذه الشهادة.

ولنعد لحادثة القيامة ذاتها، لنسأل أنفسنا، لماذا الإيمان بالقيامة شيء أساسي؟ لماذا يشدد القديس بولس إذ يقول: أن لم يقم المسيح، فنحن أشقى جميع الناس، فإن لم يقم المسيح، باطل إيماننا، وباطل اعتقادنا كله، وتكون كل حياتنا الداخلية ورجاؤنا مبنيًا على الكذب، ومؤسسًا على شيء لم يحدث أبدًا، ولا يمكننا أن نخدم على أساس من لا شيء (١ كو ١٥: ١٠، ١١).

اختبار القديس بولس للقيامة...

فلنتأمل في اختبار القديس بولس: لقد كان عبرانيًا من العبرانيين، تتلمذ لأعظم الأساتذة، رجل له إيمان ملتهب، مبني على الكتب المقدسة، مخلص بكل حماسة لعقيدة أجداده. بولس الرسول الذي كان من المحتمل جدًا أن يكون قد تقابل مع المسيح حينما كان بالجسد، وبكل تأكيد كان له صلة بتلاميذ المسيح. بولس الذي لم يترك شيئًا لم يفعله لكي يعرف، ويفهم، ويحكم على هذا النبي الجديد مقارنًا كل الذي عرفه عنه بكل الذي فهمه من الكتب المقدسة وبشهادة المجتمع العبري، ورفض القديس بولس المسيح في بداية حياته. ورفض كل ما آمن به عن المسيا المنتظر.

لم يتمكن من معرفة المسيا حينما جاء، ترك أورشليم في طريقه إلى دمشق بغرض هدم أول بادرة للأيمان المسيحي.

وأثناء رحلته هذه، رحلة الاضطهاد، وجد نفسه وجهًا لوجه مع المسيح القائم...

هذه المقابلة أعطته المعنى كاملاً، وأعطته قيمة ما أنكره من قبل. حينما تقابل مع المسيح القائم عرف معرفة مباشرة أنه هو الذي مات على الصليب، وهو الذي رفض أن يقبله كمسيا، وأنه حقًا هو الوحيد الذي كان ينتظره اليهود.

أنه يرى المسيح قد قام، وهو حي الآن أمامه بعد موت حقيقي، لذلك أصبح بإمكانه بعد هذه المقابلة، أن يدرك كل ما تكلم به المسيح عن

نفسه، وكل ما كان غامضًا في الكتب المقدسة وغير واضح عن المسيا المنتظر... أنه يرى نبي الجليل أمامه يكلمه بعد أن مات على الصليب ودفن أنه نور القيامة، أنه إيمان البشارة المفرحة (الإنجيل) الكامل. كل هذا صار ممكنًا للقديس بولس ولكل الآخرين. بالقيامة فقط يستطيع كل إنسان أن يدرك ابن الله الذي مات على الصليب، ويستطيع أن يقبله باقتناع ويقين. ويقبل مع هذه الحقيقة كل الإنجيل من الولادة البتولية، إلى التعاليم والمعجزات، إلى شهادة المسيح عن نفسه، ونتثبت من أن المسيح هو الله.

اختبار الاثنى عشر لحقيقة القيامة...

قد يكفي اختبار القديس بولس لنفهم القيامة وحقيقتها، ولكن حينما نتأمل في اختبار الاثنى عشر تلميذًا للقيامة نرى لها معان أعمق وأعظم.

كان موت المسيح على الصليب في تجربة الرسل مدعاة لدهشة أكثر من قيامته، لقد فعلوا أكثر من أن ينوحوا على فقد صديق محبوب، كان موت المسيح على الصليب، هزيمة قائد آمنوا أنه سينتصر، إذا قرأنا الإنجيل بتمعن سنرى العلاقة التي كانت بين الرسل والله، نرى كيف تكاملت المعرفة في التلاميذ عن السيد رويدًا رويدًا. لقد أتى إليه بعض تلاميذه بإيمان، وآخرون أتوا بريبة: "أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح!!" (يو ١: ٤٦). وبعدما مروا بكل تطورات التردد والشك واستوعبوا تمامًا ليس فقط تعاليم المسيح، بل شخص المسيح نفسه... لذلك نراهم منكوبين أمام المصلوب.

لقد كانوا جماعة، يمكن اعتبارها أنها منفصلة عن العالم جماعة مختارة اصطفاها المسيح، وصار الرب يسوع هو مركز حياتهم بالكامل.

لقد سأل المسيح تلاميذه يومًا، إن كانوا يريدون أن يتركوه هم أيضًا، فأجاب بطرس، إلى من نذهب يا رب وكلام الحياة الأبدية عندك!

فأمامنا جماعة بشرية، مركزة حول شخص يعتبرونه أنه هو الحياة الأبدية بالنسبة لهم. ظهر في عالم زائل ابن ساعته. عالم ادخل فيه الإنسان الخطية والموت والخراب، ولا يمكن لهذه الجماعة البشرية أن توجد بعيدًا عن علاقتها بالمسيح، إن ارتباطهم بشخص المسيح ليس رباط محبة أو صداقة أو ولاء وإخلاص، بل لأنهم اختبروا فيه الحياة الأبدية لذلك كانت أعمق من كل هذه العلاقات، وأكثر أتساعًا في خلاصتها وجوهرها.... لقد احضر إليهم المسيح حياة أعظم، وأكمل، وأغنى، وأفضل، وأكثر جمالاً، أنها حياة مختلفة تمامًا عن حياة البشر، أنها حياة سمائية.

ولما مات المسيح على الصليب، كان هذا بالنسبة لهم أكثر من مأساة. لقد واجه المسيح أمامهم، الذي كان يرمز إلى المحبة في قمة تجليها، والسر الإلهي حاضرًا متجسدًا فيه، واجه الكراهية المتجسدة... وعلى الصليب مات المسيح، وكأن كراهية البشر كانت أقوى من الحب الإلهي وتمكنت البغضة البشرية أن تقمع الحب الإلهي، وأن تطرده من أن يسكن بين الناس، أن رفض المسيح وإنكاره وموته على الصليب معناه الضياع من الحياة الأبدية، من الإنسانية.

لأن طرد الحب الإلهي الذي وهب للإنسان بطريقة ما، هو فقدان الرجاء العظيم... الحب الإلهي مرفوض، وماذا يبقى للإنسان من دونه؟

أحسوا أمام الصليب، أن ما ملكوه في المسيح، قد أضحى غمامًا باهتًا، ذاك الغمام الذي يفصلنا عن المسيح. غمام متكثف من قلة المحبة، وقليل من الكراهية، وكثير من اللامبالاة، الغمام الذي تغرب فيه كل إنسان عن صديقه. ذاك الغمام الذي تصبح فيه العلاقات البشرية هشة، مربوطة معًا بروابط سرعان ما تنكسر، وما أن تتلاصق حتى تنفك مرة أخرى.

ولكن ماذا عن هؤلاء الذين كانوا متحدين بالمسيح، واختبروا حضور الإله الحي في وسطهم؟ لقد أحسوا أنهم قد فقدوا وجودهم ذاته، وما تبقى من أيام حياتهم ما هو ألا منظر الهزيمة النهائية، تأجيل الرجوع للتراب وهو عذاب أقسى من الموت.

فالإنجيل، حين يفهمنا سواء بالكلام المباشر، أو عن طريق الخيال، أننا في موت المسيح، نحن جميعًا أموات وليس لنا حياة إلا في القيامة معه، فإنه يتكلم عن واقع حقيقي... ورغم هذا فنحن لا نستطيع أن ندرك عمق مأساة الصليب كمثل الرسل...

أننا في طقوس الجمعة العظيمة نحاول أن نعيش في المأساة، ولكننا نكون على علم أننا قبل نهاية الثلاث أيام سنشدو بلحن القيامة. لا نستطيع أن نمحي معرفتنا عن قيامة المسيح، ونحن نصلي في الجمعة

العظيمة، ليس فقط لأننا عشناها سنة بعد سنة ولا نستطيع أن ننساها بل لأننا كأعضاء في جسد المسيح السري الذي هو الكنيسة نشعر أن لـدينا الحياة الأبدية في داخلنا، وهي التي تشهد فينا أن ظلمة الجمعة العظيمـة قد غلبت فعلاً، لأنها مغلوبة في داخلنا بواسطة النور الذي يسـكن فينـا فعلاً. أن الحياة موجودة، والغلبة قد اكتسبت ولو جزئيًا على الأقل.

لذلك فإنه من غير المحتمل بالنسبة لنا أن لا نتذكر القيامة الآتية، ونحن وسط الجمعة العظيمة.

ولكن الجمعة العظيمة بالنسبة للرسل كانت آخر أيـام الأسـبوع وآخر يوم لأمل الحياة كما عرفوها. في اليوم التالي للصلب – اليوم الذي سبق القيامة– كان يومًا كثيف الظلمة، معتم إلى درجة لا يمكن اختراقها كما كانت في الجمعة العظيمة، ولولا حدوث القيامة لكانـت كـل أيـام السنة، وكل أيام حياتهم ظلامًا شاملاً، أيام كان الله فيها ميتًا، هـزم الله، ونفى نهائيًا وجذريًا من مجتمع الناس.

وإذا أخذنا في اعتبارنا الاتحاد الذي نما بين المسـيح وتلاميـذه ببطء، حتى أن حياتهم التي كانوا يعيشونها كانت حياته التي فيها وبهـا كانوا يتحركون...

لذلك فقد رأوا وأحسوا، وفهموا أن ظلمة الجمعة العظيمة بالنسبة لهم كانت آخر أيام التاريخ، بل أن موت المسيح يعني موتهم هم كـذلك، لأن الحياة قد اختطفت منهم، ولا يستطيعون أن يعيشوا بعد هذا بـل أن يوجدوا فقط.

من هذا نستطيع أن نشعر، لماذا كانت القيامة بالنسبة للرسل تجديدًا كاملاً، ونقطة تحول حاسمة عندما ظهر لهم المسيح في اليوم الثالث، والأبواب مغلقة ظنوا أن هذا هذيان، خيال... لذلك يصر المسيح في مناسبات القيامة حين ظهوره كما هو مدون في الإنجيل أن يؤكد لهم أنه لم يكن روحًا أو خيالاً، ولكنه حضور جسماني حقيقي: فقد شاركهم الطعام... وقال لهم، جسوني. انظروني، وترك توما يتأكد من جراحاته.

ويمكننا أيضًا أن نفهم، لماذا كانت كلمات المسيح الأولى هي: سلام لكم.

أنه يريد أن يعيد إليهم السلام الذي فقدوه بسبب موته الذي هو موتهم، يحررهم من الاضطراب الكلي، الاضطراب الذي بلا رجاء الذي كانوا غارقين فيه. حالة عدم وضوح الرؤيا التي تكون فيها الحياة غير مدركة وغير مفهومة، واعني بها الحياة المؤقتة المؤدية إلى الأبدية.

لقد أعطاهم السلام الذي وعدهم به، السلام الذي لا يستطيع العالم أن يعطيه، أنه سلام فريد لا يستطيع أحد سوى المسيح أن يعطيه، هذا السلام "الذي يفوق كل عقل" السلام الذي يتكامل في كل الحياة، الذي يسمو على كل شك وكل تردد. أنه سلام اليقين الذي يتملك على الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يشكوا في الحياة لأنهم أحياء ويحسون بحياة الدهر الأتي التي وهبت لهم بقيامة المسيح وعطية الروح القدس.

اختبارنا لبهجة القيامة...

فرحة القيامة، أمر ينبغي أن نتعلم كيف نختبره ولكننا في الواقع لا نختبره ما لم نتعلم أولاً مأساة الصليب. فلكي نقوم مرة أخرى يجب أن نمر بالموت، يجب أن نموت، نموت عن أنانيتنا المعرقلة لنا، ونموت عن مخاوفنا. نموت عن كل شيء يجعل العالم ضيقًا ومقفرًا، وقاسيًا، وفقيرًا. نموت لكي تحيا أرواحنا، حينئذ نفرح، ونكتشف ينبوع الحياة. ونشعر بقوة القيامة قد حلت علينا نحن أيضًا، وأكرر، أنه بدون موت الصليب لا تكون هناك قيامة. لا يكون هناك فرح القيامة، وبهجة الحياة المستعادة، تلك البهجة التي لا يمكن أن تنتزع منا مرة أخرى!

أنها فرحة الحياة المتدفقة كجداول المياه عند سفوح الجبال، التي تعكس فوق مياهها اللامعة كل بهاء السماء عينها.

أن قيامة المسيح حقيقية تاريخية، كما كان موته على الصليب أيضًا حقيقة، ونحن نؤمن بها ليس بوقوعها فقط، بل لأننا نحسها بقلوبنا وبكامل تجربتنا. نستطيع أن نعرفه يومًا فيومًا كما عرفه الرسل، ليس كما في أيام تجسده، حين أحاط به الناس في ريبة وحيرة، بل نحن نعرف المسيح الحي إلى الأبد مسيح القيامة، الذي ينتمي للزمن والأبدية، لأنه مات مرة على الصليب، ولكنه حي إلى الأبد.

قيامة المسيح هي الواقعة الوحيدة التي تنتمي إلى الماضي والحاضر معًا:

الماضي، لأنها حدثت في يوم معين، وفي وقت معين نظرت وعرفت كواقعة تحت الزمن.

والحاضر، لأنها خبرة يومية، حين نتقابل مع المسيح الحي، والدائم إلى الأبد.

يستطيع كل منا أن يعرفه شخصيًا، وأن كنا لم نعرفه شخصيًا، لا نكون قد تعلمنا، ماذا نعني بكوننا مسيحيين.

أبعاد أخرى لموت المسيح وقيامته...

هناك ترنيمة روسية نقولها في الجمعة العظيمة تقول:

أيتها الحياة الأبدية، كيف هذا أنك ذاهبة للقبر.

أيها النور الحقيقي، كيف هذا، أنك انطفأت حقًا، في الجمعة العظيمة، أنها الحياة الأبدية التي تبدو أنها ذاهبة إلى القبر.

وهو النور الأبدي، مجد الله المستعلن في ابنه هو الذي يظهر أنه أنطفأ.

وكما لو كان قد راح عنا إلى الأبد.

ولكي نفهم معنى موت المسيح الخلاصي في يوم الجمعة العظيمة، ينبغي أن نفهم معنى التجسد.

لقد ولد كل واحد منا من اللاوجود، وندخل إلى حياة زائلة، متقلبة، لننمو كي نستقر في الحياة الأبدية.

أننا ندعى من العدم بكلمة الله الخالقة، وندخل إلى الزمن، ولكننا نجد في الزمن أبدية. لاحظوا أن الأبدية ليست مجرى بلا نهاية للزمن، الأبدية ليست شيئًا، أنها شخص. الأبدية هي الله نفسه الذي نستطيع أن نقابله في مجرى الزمن السريع الزوال. وحينما نتقابل مع الله، ويكون لنا شركة معه، إذ يعطينا نعمته ومحبته في حرية متبادلة، نستطيع أيضًا أن ندخل الأبدية لنشارك في حياة الله ونصير "شركاء الطبيعة الإلهية" كما عبرت بجرأة كلمات القديس بطرس.

أما المسيح ابن الله، فلم تكن ولادته مثلنا، أنه لم يدخل إلى الحياة من اللاوجود، ولم تكن ولادته هي بداية حياته النامية، كلا لقد كان كائنًا من قبل بداية العالم ودائم الكمال وكان له كل المجد الأبدي مع الآب قبل كل زمان، يدخل إلى عالمنا المخلوق، الذي أدخل فيه الإنسان الخطيئة والآلام والموت.

ميلاد المسيح بالنسبة له، ليست بداية الحياة بل هي بداية الموت. إن أول يوم ميلاده على الأرض هو يوم في بداية الموت. أن أول يوم ميلاده على الأرض هو يوم في صعوده على الصليب.

إن موته فريد في نوعه، له وزنه وصفاته الخاصة. لم يكن سر خلاصنا وفدائنا بموت المسيح هو قساوة آلامه، لأن كثيرين من بني البشر قد ماتوا بنفس القساوة، رجالاً ونساءً وأطفالاً. كثيرون احرقوا في النار، كثيرون تجمدوا في الجليد، كثيرون ماتوا من مرض طويل تعذبوا فيه، وكثيرون قاسوا من تعذيب وحبس في مخيمات مرعبة أثناء الحروب.

ولكن فداؤنا تم لأن موت المسيح كان فريدًا في نوعه لأن يسوع الناصري، لا يمكن أن يموت. لم تكن قيامته هي المعجزة التي لا تصدق، بل موته، نعلم من كتابات القديس بولس ومن تعليم الكنيسة الجامعة أن أجرة الخطيئة هي موت.

مفهوم الخطيئة أنها تفصلنا عن شركتنا مع الله، والمسيح هو الله بذاته المتجسد. فالجسد الحقيقي الذي أخذه، هو فوق مستوى الموت.

وهنا التناقض الحقيقي، وهنا المأساة التي لا مثيل لها. يقول أحد القديسين الأرثوذكس:

في تجسد المسيح تحدث واقعتين، الأولى، أن يصير هو إنسانًا، والثانية أن يظهر لنا الإنسانية الحقيقية التي إليها دعينا.

الإنسانية المتجذره في الحياة الإلهية ذاتها، غير المنفصلة عن الله، والتي لا يقهرها الموت.

أما أن يصير المسيح واحدًا منا، يشاركنا آلامنا بصدق، ويعاني التخلية، ويحمل على عاتقه كل الأحمال التي تسحق الإنسان سحقًا، فكل هذه الأمور تعتبر غريبة على المسيح، الألم، التعب، الجوع، العطش احتمال الموت، وعندما تحين الساعة يموت موتنا على الصليب!!!

ولكنه موت أكثر من موتنا. أننا نموت لأننا نفنى وتنحل أجسادنا وتتحلل، لأننا لا نستطيع أن نعيش أكثر من هذا ٠ فلو أننا في فترة حياتنا هذه، اكتسبنا معرفة الله، وحياة الشركة معه- لأصبح الموت

بالنسبة لنا لا يعني هزيمة ولكن حياة جديدة، حياة أفضل وخصيبة كما يراها القديس بولس حين قال أن الموت بالنسبة له لا يعني فقدان الحياة. ولكنها تعني التسربل بالحياة الأبدية.

ولكن الموت بالنسبة لنا هو مأساة، الروح ينفصل عن الجسد، ويتحطم تكامل الإنسان، فيجب أن ننتظر قيامة الجسد، وننتظر غلبة الحياة الأبدية لنصير حقًا إلى الصورة التي دعينا إليها.

صليب الحب...

أما ما حصل في موت المسيح، فهو شيء مختلف. لقد مات مع انه لا يمكن أن يموت، مات مع كونه خالد بالطبيعة، انفصلت نفسه عن جسده دون أن ينفصل لاهوته لا من نفسه ولا من جسده. سيظل في القبر دون فساد إلى اليوم الثالث، لأن جسده لا يمكن أن يرى فسادًا، لأنه ممتلئ بالوجود الإلهي. يتخلله كما تتخلل النار الحديد.

وتهبط نفس المسيح إلى الجحيم، وهو يلمع بمجد الله: فموت المسيح انفصال نفس خالدة من جسد لا يستطيع أن يموت، فيبقى النفس والجسد في الحياة إلى الأبد. وهذا يجعل موت المسيح مأساة فوق إدراكنا موت المسيح، يفوق كل ألم نستطيع نحن البشر أن نتصوره أو نختبره.

أن موت المسيح هو عمل محبة فائق السمو، لقد كان المسيح على حق حينما قال: "لا يأخذ أحد حياتي مني، أنا أعطيها بنفسي مجاناً".

لا أحد يستطيع أن يقتل من لا يموت، لا يستطيع أحد أن يطفئ هذا النور الذي هو بهاء نور الله.

لقد بذل حياته، وقبل الموت المستحيل، لكي يشترك معنا في كل مأساتنا البشرية.

لقد حمل الله بنفسه على كتفه أول صليب، وأثقل صليب وأروع صليب، وبعده ألوف الألوف من الرجال والنساء والأطفال، حملوا صلبانهم بأنفسهم.

كم من مرة تصبح هذه الصلبان التي هي أقل من صليب المسيح مخيفة لنا. لقد سارت جموع كثيرة من الناس لا تعد ولا تحصى، ساروا في أثر خطوات المسيح بمحبة وطاعة، سائرين في الطريق الطويل، الطريق الكربة التي أرانا الله إياها، أنه طريق كرب ولكنه يؤدي بنا من الأرض إلى عرش الله وإلى ملكوت الله.

كلهم يسيرون حاملين صلبانهم، يسيرون الآن لألفين من السنين، مؤمنين بالمسيح، وتابعين خطواته، جمع بعد جمع.

نرى في هذا الموكب صلباناً لا حصر لها، صليبًا بعد صليب، وإلى مدى البصر.

صلبان تلاميذ المسيح التي صلبوا عليها،

وصلبان الشهداء،

وصلبان أبطال الروح من رهبان وراهبات.

وصلبان الأكليروس والمبشرين،

ولكننا نرى أشخاصًا عاميين وبسطاء حملوا صلبانهم باتضـــاع، وبكل رضى...

لا نهاية لهذا الموكب المهيب، أنه يسير طوال القرون وكل واحد يعلم بما قاله ربنا يسوع المسيح من قبل أنه في العالم سيكون لهم ضيق، وإن لهم ملكوت السماوات.

أنهم يسيرون بصلبانهم الثقيلة، مرفوضين مبغضين من أجل الحق ومن أجل أسم المسيح. يسيرون، يسيرون، يسيرون ضحايا الله الأطهار، شيوخًا وشبانًا وأطفالاً، ورجالاً.

ولكن أين نحن؟؟؟

حينما نتوقف ناظرين هذا الموكب الطويل، أن جميعهم لهم عيون منيرة، ورجاء قوى ومحبة غير مترددة، وفرح في قلوبهم لا ينطق بـــه ومجيد، ننظرهم وهم يعبرون بنا؟

أما نريد أن نشاركهم، نشترك مع هذا الجمع المتحرك إلى الأبد؟

أما نحمل صليبنا ونتبع المسيح؟

لقد أمرنا المسيح أن نتبعه، لقد دعانا لوليمة الملكوت، وهو بذاته على رأس الموكب، نعم إنه مع كل واحد من هؤلاء السائرين...

أهذا وهم؟

كيف يمكن للحم ودم أن يتحمل مناظر كل هـؤلاء المصـلوبين؟ شهداء المسيح القدامى والحديثين؟

أننا نراهم في نور القيامة، في نور المسيح الذي قام. نبي الجليل الغالب.

أننا نعرفه الآن في مجد القيامة.

نعلم أن كل كلمة منه هي كلمة صادقة.

نعلم أن ملكوت الله لنا، أن كنا نتبعه ببساطة.

الفهرس

صفحة

المقدمة ٧

أولاً: الاستعداد للرحلة نحو الله ١١

+ منطقوا أحقاءكم ١١

ثانيًا: الرحلة إلى الله ٣٢

+ قصة بارتيماوس ٣٢

+ مثل الابن الضال ٤٦

ثالثًا: الهدف وهو الله ٦٣

+ القيامة والصليب ٦٣

قرش جنيه
٢,٥٠